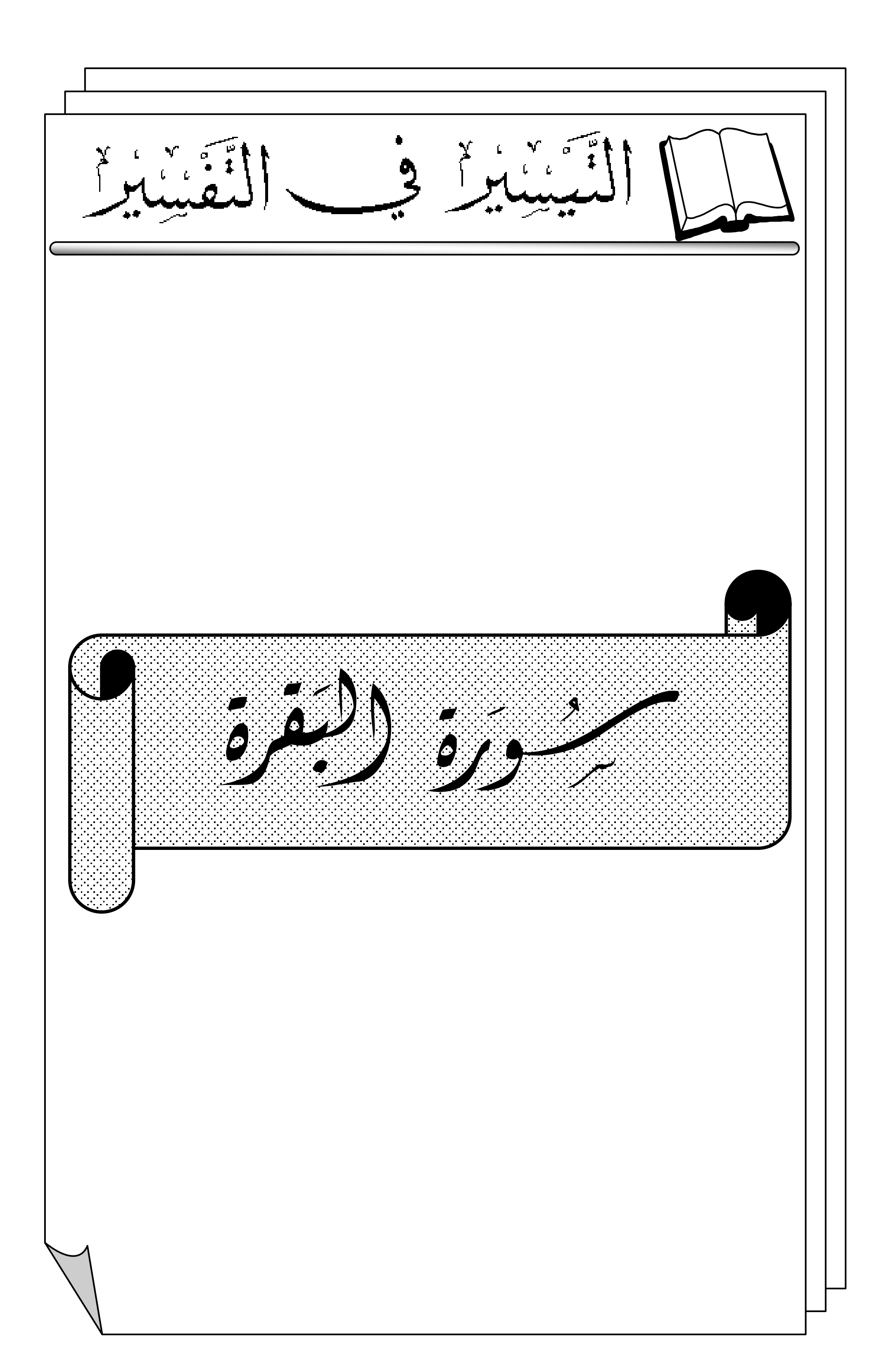

التيسير في التفسير
سورة البقرة

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ هذه الأحرف من حروف المعجم، هي أسماء للحروف التي ينظم منها الكلام، فـ(ألف) اسم للألف في (قال) و(دعا) ونحو ذلك، و(لام) اسم للام في (قال) ونحوها، و(ميم) اسم للميم في (محمد) ونحو ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر هذه الثلاثة الأحرف كثيراً، فقد ذكر ألف لام أربع عشرة مرة؛ ست مرات مع الميم، والسابعة مع الميم والصاد، وست مرات مع الراء، والسابعة مع الميم والراء، وذلك في ﴿الم﴾ ﴿المص﴾ ﴿الر﴾ ﴿المر﴾ وذكرت الميم سبع مرات في ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ ومرة في ﴿المر﴾ وسبعاً في الحواميم، ولعل سبب ذلك ـ والله أعلم ـ كثرة هذه الأحرف في الكلام، فجاءت كافية عن ذكر الأحرف كلها، وهذا حيث جاءت لقصد التحدي بآيات الكتاب المركبة من حروف المعجم التي ينطق بها العرب، فكأنه يقول: هذا القرآن هو أحرف من الأحرف التي تتكلمون بها في كلامكم، فما لكم لا تأتون بسورة من مثله إن كنتم في ريب منه؟!

فسرد بعض الأحرف إشارة إلى كلها وأكثر منها لهذا الغرض ما هو أكثر وروداً في الكلام، لكونه أوضح وأقرب لفهم الأميين، وكذا حيث جاءت هذه الأحرف في أول بعض السور للدلالة على أن الله تعالى أوحى هذا القرآن كلاماً حقيقياً مؤلّفاً من الأحرف من شأنه أن يسمع ويكتب، تحقيقاً لكونه من الله أنزله على عبده ورسوله أوحاه كلاماً كما نسمع ونرى.

لا أنه تقوّله، ولا كان مجرد إلهام للمعنى دون القول وحروفه، ولم نعرف من أسرار هذه الأحرف أكثر من هذا ولا ننفي ما جهلناه، ولكن نقول ما ينسب إلى القرآن الكريم من المعاني الباطنة على ثلاثة أقسام:

قسم يتوصل إليه علماء الدين المهتدون بهدي القرآن، يتوصلون إليه بالظاهر من دلالات القرآن.

وقسم يتوصلون إليه بالدلائل العقلية، وهو لاحق بالأول أو بالقرائن الظاهرة من ظروف نزول القرآن أو من مناسبة مقاصد القرآن المعروفة بالممارسة في التفسير.

وقسم يدَّعَي بالإلهام دون أن يتوصل إليه بدليل، فهذا مردود ولا تسمع دعواه ولا سيما إذا خالف الظاهر كما تدعيه الباطنية؛ لأنه لا دليل عليه، ولأن الله أنزل القرآن للناس بلسان العرب ليعقلوه كلهم ولم يخص به شيخاً ولا إماماً كما هو معلوم من دين الرسول ص، ولا يجوز أن يخاطب الله سبحانه عباده بما يفهمونه وهو غير مراد، بل المراد خلافه أو ضده، هذا لا يصدر من حكيم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨].

أما الدليل على ما فهمناه من إرادة تحقيق أن الله تعالى أوحى الكتاب كلاماً مؤلفاً من الأحرف أو التحدي، فإنه يظهر من اقتران الأحرف بما يدل على ذلك في بعض المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء،القصص:١-٢] ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢].

واختار الإمام القاسم بن محمد × في (الأساس) أن هذه الأحرف جاءت في أوائل بعض السور للقسم بها، واحتج لذلك بأن القسم مفهوم في مثل قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣] وقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١] ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١] فجعل القسم بالأحرف وبالقرآن، وقدّر حرف القسم قبل الأحرف وجعل الواو المذكورة عاطفة، وليس بعيداً أن يقسم الله بالأحرف التي أنطق الإنسان بها؛ لأنها من دلائل قدرة الله وعلمه، ومن نعم الله العظمى على الإنسان.

وما ذكرته من إرادة التحدي أو تحقيق وحي القرآن كلاماً مؤلفاً من الحروف، إنما يترجح في بعض المواضع ولا يقاس عليه بقيتها، فالمحقق أنها اسم لمعناها المفهوم عند العرب الذي تبنى منه الكلمات، فأما فوائدها وأسرارها فموكول إلى من علّمه الله.

قال الإمام القاسم بن إبراهيم × في كتاب (الرّد على ابن المقفّع) [ص١٤٦] نسخة صورة مخطوطة: ((ثم عمد ـ أي ابن المقفع ـ إلى سرّ أسرار القرآن، وأعجب عجائب سر القرآن من الرايات والحواميم وما ذكر فيه من قاف والم وطسم، فعدّ علمها جهلاً، وظن مصون عجيبها مبتذلاً، وأراد ويله علم سر أنبائها، وما طواه الله إلاَّ عن الأصفياء في إيحائها، وكَلاَّ لم يجعله الله لعلمها أهلاً، ولم يجعل قلبه العميّ لها محلاً، بل أخفاه الله وزمّله ولم يعطه إلاَّ أهله)) انتهى المراد. وفي الأم: إنبائهما وإيحائهما بالتثنية، ولكن من الواضح أنه غلط.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم × في كتاب (مديح القرآن الكبير) [ص٤٩٢] من مجموعِهِ × في مدح القرآن: ((كيف بما في حواميمه من غرائب حكمه، وما في طواسينه [من] عجائب مكنونه، وما في ق، وطه، ويس، من علم جمّ للمتعلمين)) انتهى المراد.

هذا ولسنا بمكلفين بعلم أسراره، والتكليف به خاص بمن يستطيعه، وأما الخرص والتخمين فليس من التفسير المقبول، وكذلك ما يروى من تفسيرها عن علي × بدون سند صحيح ولا وجه يوجب اعتماده، فلا يصح عندنا ولا نراه، وما روي عن الإمام الهادي × : من أن الله تعالى لم يطلع أحداً على معانيها، حتى أنه لم يطلع رسوله ص، فهو قول عندي بعيد صحته عن الهادي × ، والأقرب عنه × نفي التكليف لنا بعلمها فقط.

(٢-٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ قد تقدم في تفسير (الفاتحة) أن الهدى من أهم المطالب وأعظم النعم؛ لما يترتب عليه من النجاة من النار والفوز بالجنة والسعادة الأبدية، وهذه الآية الكريمة تدلنا على ما به نهتدي، وهو القرآن مع التقوى من حيث أنه الحق الذي لا ريب فيه ولا شك في انه صدق وحق وعدل، وأنه من الله ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] فلا يتعلق به الريب من أي جهة.

والريب: هو القلق في النفس، فهو كناية عن نفي الشك فيه، وفي قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تعبيراً عن القرآن إشارة إلى أنه نزل ليكتب ويبقى تتوارثه الأجيال ليهتدوا به، والراجح: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبر أول.

وقوله: ﴿لَا رَيۡبَ ۛ فِيهِ﴾ خبر ثان وقوله: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبر ثالث، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وقد تضمن قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ بيان: أن القرآن هدى لمن يهتدي به، وهو بداية الكلام في اختلاف المكلفين بين من يهتدي به ومن يكفر به ومن لا يؤمن به مع دعواه الإيمان، ثم بيان الحجة على أنه من الله نزله على عبده ورسوله، ثم الوعيد لمن كفر والوعد لمن آمن، فأول فرقة هم المتقون الذين يهتدون به.

وبيّن صفة المتقين التي انفردوا بها عن الكفار والمنافقين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يصدقون به ويذعنون له، وتقبله قلوبهم موقنة أنه الحق، و (الغيب) هنا هو ما أخبر الله به من المغيبات، ومن ذلك ما ذكره الله في آخر السورة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ..﴾ الآية.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾وإقامتها أن يحيوها، فيؤدوها قيّمة، أي خالصة لله كاملة فروضها وشروطها في أوقاتها، وهذه من خواص المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [التوبة:٧١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [الأنفال:٢-٣] وغير ذلك.

ولعل من إقامتها حضور الذهن فيها بحيث يعلم ما يقول، قال تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ مما رزقناهم مما أعطيناهم من المال، وهذا خاص بالحلال؛ لأن ما أخذه العبد غصباً مثلاً لا يقال فيه رزقه الله إياه، بل هو رزق لأهله، والمراد الإنفاق فيما أمر الله به، مثل ما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ

والإنفاق في وجوه الخير من علامات الإيمان والتقوى؛ لأن المؤمن المتقي يرجو الثواب وصرف العقاب فيبعثه ذلك على الإنفاق بخلاف المنافق والمكذب بالدين، وكذلك قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤] وقال تعالى في المكذب بالدين: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٤] وقال في المنافقين: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] وغير ذلك.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ هذا عطف على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فهو من صفة المتقين، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يعم القرآن، وما أوحاه الله إلى رسوله محمد ص من غيره، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يعم التوراة والإنجيل، وكل ما أنزل الله مما ذكر في القرآن خصوصاً أو عموماً، والإيمان بها الإيمان بأنها من الله سبحانه، وأنها حق وصدق، واليقين بالآخرة يبعث على التقوى؛ لأن اليقين بما فيها من الجزاء لتلازمهما كما دل عليه القرآن.

ومن أيقن بصدق الوعد والوعيد خاف من النار ورغب في الجنة، فبعثه ذلك على التقوى؛ ولأن اليقين بالآخرة من تمام الإيمان بالله وقدرته وعلمه وصدق وعده بالآخرة، ومن كان كذلك أيقن بصدق الوعد والوعيد بما في الآخرة، وذلك مع الإيمان به يؤدي إلى التقوى، فظهر بهذا أن هذه الآيات بيان للمتقين، في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

۞ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ أي أهل هذه الصفات المذكورة على هدىً من ربهم، وهذا الهدى خاص بهم، وهو إعدادهم للاهتـداء بـالقرآن، فصدورهم له مشروحة، وقلوبهم له مفتوحة، وبصائرهم منوّرة، قال تعـالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقال تعـالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِـهِ وَيَجْعَـلْ لَكُـمْ نُـورًا تَمْشُـونَ بِـهِ﴾ [الحديد:٢٨] وهذا الهدى مسبب عن التقوى، وقد يحتج لذلك بقول الله تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وعندي: أن هذا الهدى هـو مـا يفهمونـه مـن القـرآن ويحفظونـه، ولكـن بسبب الهدى الذي هو إعدادهم لفهم القرآن وحفظـه كمـا يرشـد إلى ذلـك السياق، راجع (سورة مريم) و(سورة محمد) **ص**.

نعم الأَولى أن نفسر قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُـدًى مِـنْ رَبِّهِـمْ﴾ بمـا يعـم الأمرين: الهدى الذي هـو إعـدادهم للاهتـداء بـه، والهـدى الـذي هـو مـا يفهمونه ويحفظونه من القرآن، وهذا هو الصواب إن شاء الله؛ لأنه كله فائدة التقوى، وفائدة الصفات المذكورة.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بما يصيرون إليه في الآخرة من ثـواب الله، بل، وبما ينالون من الحياة الطيبة في الدنيا، فهـم المفلحـون بفوائـد الاهتـداء بالقرآن كلها، والفلاح: الظفر بالخير.

قال في (الكشاف): «والمفلح الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت لـه وجـوه الظفر ولم تستغلق عليه» اهـ.

عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الكفر يستعمل في الجحود وفي كفر النعمة، وهاتان الآيتان في كفار معينين كافرين، الكفر الذي هو ضد الإيمان، والكفر الذي هو ضد الشكر.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فالإنذار لا يحدث لهم خوفاً يبعث على النظر في صدق الوعد والوعيد؛ لأنهم معرضون عنه كارهون له، فوجوده وعدمه سواء عليهم، ولذلك لا يؤمنون بما أمروا بالإيمان به.

﴿٧﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ هذا تمثيل لها بالمسدودة التي هي غير مفتوحة للإيمان، فلا سبيل للإيمان ليدخلها، والختم: ما يجعل على فم القارورة أو نحوها من شمع أو طين أو نحو ذلك لإحكام سدّ فمها، فشبهت قلوبهم بذلك؛ لأن كفرهم سبّب لهم الخذلان وإرسال الشياطين عليهم كما قال تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣-٤].

فصاروا بإرسال الشياطين عليهم يزينون لهم الباطل، ويثقلون عليهم الحق، ويكرِّهون إليهم الإيمان، كارهين للإيمان كراهة شديدة تحول بينهم وبينه، فكأنها ختم على قلوبهم يمنع دخول الإيمان فيها، أما نسبة ذلك إلى الله سبحانه ففيه فوائد:

الفائدة الأولى: تعظيم هذا الختم والدلالة على قوته؛ لأن الله غالب على أمره.

الفائدة الثانية: الدلالة على أن الله قد غضب عليهم، وعاقبهم بهذا الختم الذي هم معه لا يصيرون إلى خير.

الفائدة الثالثة: الدلالة على أن الله تعالى غني عنهم لا يبالي بهلاكهم ولا بامتناعهم من الإيمان وكفرهم.

الفائدة الرابعة: أن يتسلى الرسول ص عنهم ولا يتعب نفسه في محاولة إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] والتسلية هي من حيث الإشعار بأن الله خذلهم وشاء تركهم على كفرهم.

الفائدة الخامسة: تشريف كلام الله العزيز المقتدر عن أن يكون ذكره لتمردهم يشبه الشكوى منهم.

أما وجه صحة النسبة للمانع من الإيمان إلى الله فله وجهان:-

الأول: أن الله فطر القلوب على أن تميل إلى ما عُوِّدت وتألف ما أُلِّفت كما فطرها على الشهوة والإلتذاذ بلذات الدنيا، فالقلب من هذه الجهة طوع لصاحبه، إما أن يوجهه إلى خير الآخرة وسعادتها والنجاة من النار فتكون رغبته في ذلك، وفيما يصرف عنه النار، وإما أن يوجهه إلى لذات الدنيا وأغراضها والسلامة من مشاق التكليف والراحة من العناء والانقياد للكبر وكراهية الانقياد لداعي الحق، فيتوجه القلب إلى ذلك ويكره ما صرف عنه في اعتقاده ورأيه وفيما يوسوس له الشيطان، فصحت نسبة المانع إليه سبحانه بهذا المعنى؛ لأنه هيّأ القلب وأعده لذلك بما فطره عليه وحسنت هذه النسبة لما ترتب عليها من الفوائد الخمس وغيرها، كالابتلاء بالمتشابه.

الوجه *الثاني*: أن يعتبر إرسال الشياطين والخذلان كالتسبيب لوجود المانع من دخول الإيمان في القلب، كما يقال: أفسد ولده، لمن أهمله ووفّر له ما يشتهي، فجعل ترك تأديبه وتعليمه مع توفير ما يشتهي إفساداً له منسوباً إلى أبيه.

﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ وهذا معطوف على قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي وختم على سمعهم، فكأن آذانهم مسدودة سداً محكماً يمنع سماع الإنذار والآيات، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود:٢٠] وهو تشبيه في المعنى بمن لا يستطيع أن يسمع كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا..﴾ [الجاثية:٧-٨] ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧] وهذا لأنهم لأجل كراهتهم لآيات الله وإنذار الرسول ص وإصرارهم على رفضه والتكذيب يكون سماعهم لها لا يؤدي إلى ثمرة السماع التي تكون لطالب الحق السليم من الخذلان وإرسال الشياطين، فكأن سماعهم ليس سماعاً ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فكأن إثبات الختم على سمعهم مجازاً بهذا المعنى؛ لأن بينهم وبين الانتفاع بالسمع حائل وسد من كراهيتهم للسماع وإصرارهم على الكفر والتكذيب واستكبارهم.

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ وهذا مجاز كأنهم لا يبصرون؛ لأنهم لا ينتفعون بما يرونه من آيات الله التي تأتي على يدي رسوله ص، بل كأنهم لا يرون رسول الله ص حين ينذرهم ويتلو عليهم آيات الله، فكأن على أبصارهم غطاء.

ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وجه العطف أن الختم والغشاوة عقوبة على تمردهم عن قبول الإنذار، والعذاب العظيم عقوبة أخرى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ هؤلاء قوم من المنافقين أشبهوا الكفار المذكورين قبلهم في تمردهم عن قبول الحق، بل كانوا أشد منهم كفراً لمحاربتهم الدين من بين المسلمين ومخادعتهم لهم، وغير ذلك مما ذكر في الآيات التي جاءت فيهم لبيان تمردهم وإفسادهم ووقوفهم من الكتاب الذي لا ريب فيه موقف المحاربين، ولم تأت لتفسير النفاق والتعريف بحقيقة المنافق كما لم تأت الآيتان في الكفار لبيان حقيقة الكافر؛ لأن المنافق هو الذي يتولى الكفار من دون المؤمنين سرّاً وهو مظهر للإسلام.

وهذا قد احتج له الإمام القاسم × والإمام الناصر في (البساط) بما فيه الكفاية، وأوضح دليل فيه قوله تعالى في بعض المنافقين: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٤-١٤٥] وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآيات [الحشر: من آية١١] فتأمل!!

والمنافقون يختلفون في الجرائم ودرجاتها، فهذه الآيات في بعض، وفي (سورة النساء) في بعضهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [آية:٨٨] وفي (سورة التوبة) ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [آية:٦١] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [آية:٧٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ [آية:٤٩].

وفي (سورة المنافقين) كلام في بعضهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [آية:٨] ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [آية:٧] وسبب النفاق مرض القلب، أي التردد والارتياب في صدق الرسول ص بعد سماع الآيات الدالة عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥] ثم الخوف من غلبة الكفار، ثم يكون تولي الكفار سراً عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢] وليس المراد: أنه لا يلزمهم حكم الكفر بتولي الكفار، وإنما المراد: أنه لا يشترط في المنافق أن يضمر في نفسه الكفر الذي هو الجحود بالقرآن والرسول، بل قد يكون المنافق كذلك، وقد يكون شاكاً متردداً في ريبه متولياً للكفار.

وقد يكون مرتداً كالمذكورين في (سورة النساء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً..﴾ الآية [٨٨-٨٩] فتأمل!! وقال تعالى في بعضهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

ولنرجع إلى تفسير الآيات ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ الراجح: أن هذه منهم كلمة إنشاء للإقرار بالله واليوم الآخر توهم مطابقة القلب للسان.

والإنشاء أشد في الخداع من الخبر الذي يقبل التصديق والتكذيب؛ لأن من أنشأ كلمة الإيمان يقبل كما أفاده قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة:٦١] وقوله تعالى:﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] فمن أنشأ كلمة الإيمان قبل عملاً بالظاهر وامتثالاً لأمر الله تعالى، فلهذا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ ليُقبَلوا.

فأما تعليقهم الإيمان بقولهم بالله ﴿وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فإن الإيمان من هذه الناحية هو الباعث على طاعة الله وتقواه؛ لأن الإيمان بالله إذا صدق كان باعثاً على الخوف من الله ومراقبته والإيمان باليوم الآخر إذا صدق كان باعثاً على الخوف من النار والرغبة في الجنة، وذلك يبعث على الطاعة والتقوى، فالمؤمن بالله واليوم الآخر لا بد أن يكون كامل الإيمان؛ لأن في نفسه الباعث القوي على ذلك، فقد لزم من دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر دعواهم الإيمان المطلق، ولذلك كان إبطال قولهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ الآية [النساء:٦٠-٦٥] وهذا لأن الإيمان بالله والرسول والإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله كله إذا صدق يستلزم الإيمان الكامل ويكون مدعيه مدعياً للإيمان المطلق.

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ

أما قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الكلمة الجامعة لأسباب الخشية من الله، فهو أبلغ في الخداع بإيهام أن شأنهم الصلاح والإصلاح والانقياد لأمر الله ورسوله، والنصيحة للرسول وللمسلمين، خوفاً من الله واستعداداً للقائه، ولكن الله تعالى كشف زيفهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبيّن تعالى أنهم في ذلك القول:

﴿٨﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أما مخادعتهم للذين آمنوا فظاهر، وأما خداعهم لله سبحانه فهو مجاز؛ لأنهم في غفلتهم عن الله وجهلهم بالآخرة وكون همّهم الدنيا فهم يعتبرون السلامة في الدنيا غاية مرامهم، فأظهروا الإسلام لئلا يقاتلهم المسلمون، وليعيشوا معهم وبينهم كأنهم مؤمنون، فقد فرّوا من عذاب الله لهم بأيدي المؤمنين.

فكأنهم يخادعون الله بإظهار الإسلام والإيمان، وإن كانوا غافلين عن الله؛ لأنهم لجئوا إلى إظهار الإيمان لينجوا مما يفعله المسلمون بالكافرين من القتال بأمر الله وبنصر الله فقد فروا من الله بخداعهم للمؤمنين، حيث فروا مما هو في الواقع عذاب من الله بأيدي المؤمنين، فاعتبروا مخادعين لله وإن كانوا غافلين عن الله، لأن عملهم يشبه عمل المخادع لله.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن ضر الخداع عليهم، فهم يفعلون بأنفسهم ما هو كالخداع لها؛ لأنهم يعتبرونه نفعاً ونجاةً، وهو في الواقع ضر وهلاك، فقد خادعوا أنفسهم وخدعوها وإن كانوا غافلين عن ذلك.

مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يخادعون أنفسهم ويخدعونها، قال في (الكشاف): ((والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ـ قلت: يعني تغطيةً على ما يريد من المكروه ـ وقال: ((والشعور: علم الشيء علم حِس من الشعار، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له)) انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قد قلت فيما مر أن مرض القلب: هو التردد والارتياب، ولكن الراجح أنه ذلك، وأسباب ذلك من الكبر أو الحسد أو نحو ذلك مما يكره الإيمان من أغراض النفس الأمارة بالسوء وكراهية الإيمان لبعض هذه الأسباب أو كلها، وذلك مشبّه بالمرض.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ من جنس مرضهم؛ لتمردهم عن الإيمان، وتكذيبهم بآيات الله، بسبب ذلك المرض الأول، وهذا شبه الختم في الكفار، وقد مر تفسيره.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وصف العذاب بأنه ﴿أَلِيمٌ﴾ يدل على شدته، أي أنه عذاب شديد؛ لأن من شأن العذاب أن يؤلم ألماً شديداً، فإذا وصف بأنه أليم دل على زيادة ألمه عن المعنى الذي تفيده كلمة عذاب ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ تعليل لتعذيبهم بذلك العذاب، ويصلح مع ذلك تعليلاً لقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

﴿١١-١٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بما تكيدون به الإسلام، وإذا ذكر الفساد مع زيادة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو عبارة عما شأنه أنه يعم ضرورة وينتشر إذا لم يدفع، كمحاربة الدين بالدعايات أو الشبه أو غيرها، وكمحاربة اقتصاد المسلمين أو إضعاف جمهورهم بأي وسيلة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ فنحن أبعد عن الفساد في الأرض بالغوا في تنزيه أنفسهم، وهذا العطف هو عطف لصفتهم هذه على صفتهم في الآية التي قبلها، قوله: ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾ أعني على الصلة، والآيتان اللتان بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ كذلك يذكر سبحانه قولهم، ويرده رداً شافياً.

ففي الأولى قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وفي الثانية: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ وفي الثالثة: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وفي الرابعة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ والآيات المتضمنة لذلك متعاطفة بشكل واضح في سياق ذمهم وتقبيح طريقتهم:.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ قال في (الكشاف): «ردّ الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدلّه على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في كلتا الكلمتين، (ألا) و(إن) من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل» انتهى.

قلت: أنا أستشعر من ابتداء الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أَلا﴾ التي هي حرف تنبيه، كأن الآية تعلن بهذا التصريح وتنادي به في المسلمين، وفي ذلك فوائد:

الأولى: إبطال قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ وتحقيق أن الواقع ضده على غاية المضادة.

الثانية: الدلالة على أن القائل: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو المصيب، وأنهم المخطئون بالرد عليه.

الثالثة: تحذير المسلمين منهم لئلا يفسدوهم، أو يفسدوا ما بينهم من الألفة والإخاء.

إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ففيه دلالة على أنهم في ضلال بعيد، حيث لا يشعرون أن ما يفعلونه من كيد الإسلام والمسلمين إفساد.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين هم الصادقون في إيمانهم فهم الناس هنا؛ لأنهم الصالحون الكاملون في الإنسانية، ولأنهم أهل القوة بألفتهم والعزة بإيمانهم، فإيمانهم هو الإيمان الذي يبعث على العمل الصالح والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ومباينة الكفار، خلاف ما عليه المنافقون الذين يتولون الكفار ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨] ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ استخفافاً بأهل الدين واستضعافاً لعقولهم، وزعماً أن أهل الدين فاقدون لحسن الرأي ورجاحة العقول، وزعماً أن ما يصدر عن المنافقين إنما هو مقتضى الرأي وتوخي المصلحة وإرادة استمالة الكفار إلى الإسلام وترغيبهم فيه باللين والمصانعة والمجالسة، فعدّوا مخالفة طريقة المؤمنين لطريقتهم إنما هي من ضعف الرأي ونقص العقول.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وتأكيد لما بعدها، وفي هذا الرد عليهم من التأكيد مثل ما في قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ويبين أنهم هم السفهاء، كما أخبر الله أصدق القائلين أنهم سلكوا في نفاقهم طريقة توجب لهم الدرك الأسفل من النار، فهم في الآخرة أبداً معذبون، وفي الدنيا في فرق وقلق مذبذبون لم يستفيدوا بالنفاق أمناً، ولا عزة، ولا راحة، بل على العكس من ذلك كما تفيده الآيات الكريمة في (سورة البقرة) و(سورة النساء) و(سورة التوبة) و(سورة المنافقين).

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ

والعقل لا يدعو إلى ذلك، بل يدعو إلى طريق الأمن والسلامة والكرامة، فدل تصرفهم الخاطئ على أنهم ضعاف العقول؛ لأنهم أهملوا عقولهم واتبعوا أهواءهم فضعفت عقولهم بالغفلة وترك النظر، وبقوة هوى النفس في خلاف العقل فصح أنهم هم السفهاء، قال في (الكشاف): «والسفه: سخافة العقل، وخفة الحلم» انتهى.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لأن علمهم بذلك يتوقف على الإيمان الصادق الذي يعرف به صواب الرأي وطريق الفلاح وأسباب النجاة وأسباب التوكل على الله، وبينهم وبين ذلك مسافات ومراحل، نسأل الله الثبات.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ عن المسلمين، أو عن المسلمين وغيرهم ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ الذين يغوونهم من اليهود مثلاً ﴿قَالُوٓاْ﴾ لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ مشاركون لكم في قضاياكم ضد الإسلام، وهذه عبارة اتخاذهم أولياء، فالمعيّة والولاء متفقان في المعنى، فسواء قولهم: نحن معكم في الأمور المهمة، أو نحن أولياؤكم.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ إذ قلنا كلمة الإيمان فنحن إنما قلناها استهزاء بالمؤمنين أي سخريّة بالمؤمنين واستخفافاً بهم، ليس جداً، فالهزوء كلام غير جد لغرض الاستخفاف بمن يقال له، ألا ترى إلى قول (بني إسرائيل): ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ كأنهم استبعدوا أن يكون جادّاً في أمرهم بذبح بقرة، وجوّزوا أنه في ذلك يستهزئُ بهم.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ بمعنى: أنه يفعل لهم فعل المستهزئ يملي لهم ولا يعاجلهم بالعقاب، لا لأنه راضٍ عنهم، ولا لأنه غير معاقب لهم، بل هو معدّ لهم العذاب، فعبر سبحانه بالعبارة المشاكلة لكلمتهم، وهو سبحانه لا يستهزئ، ولكن هذه مشاكلة لفظية، كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي خيطوا لي جبةً وقميصاً، وأتى بالفعل الدال على التجدد لتكرار أعمالهم التي يستحقون بها العذاب، فكلما أجرموا أمهل.

﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ حيث يخذلهم ويتركهم يعاودون الطغيان، يبسط لهم نعمته فيزدادون طغياناً ويزيدهم رجساً إلى رجسهم بما ينزل من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] ونسبة الإمداد إليه سبحانه مجاز كالختم، وقد مر التحقيق فيه.

ومعنى ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتردّدون في الباطل، لا يهتدون للصواب كالأعمى يتردد في غير طريق لا يهتدي إلى الطريق، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومقابلته بقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ يظهر منه أن المنافقين إنما يقولون للمؤمنين عند ملاقاتهم في طريق أو نحوها لا يقصدونهم إلى محلهم، وأما شياطينهم فيتوجهون إليهم ويقصدون الخلوة معهم ميلاً إليهم، وقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يريدون لم نتحول عنكم بما قلناه للمؤمنين، بل ما زلنا معكم.

﴿١٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أهل الكلام الذي حكاه سبحانه عنهم في الآيات من قوله: ﴿ومن الناس﴾ وأهل الصفات التي اشتمل عليها الكلام فيهم، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ تعجيب منهم؛ لأن اشتراء الضار النافع عجيب يُسأل عن فاعله مَن هو، فيقال: هو هذا الذي صنع كذا وكذا.

كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ

ومعنى ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ استبدلوا، أخذوا الضلالة بدل الهدى، وأي عاقل يختار الضلالة عن الطريق بدلاً من الهدى لها؛ لكنهم أهملوا عقولهم، ولما كانوا في موقع الهدى في محضر الرسول يتلو آيات الله، وفي موقع بركات النبوة بحيث أن حقهم لو استعملوا عقولهم أن يهتدوا، فاختاروا الضلال والكفر صَحَّ اعتبار ذلك منهم استبدالاً واشتراء؛ لأنهم تركوا ما هو ميسر لهم لو أرادوه.

فكأنه بأيديهم لحضوره لديهم وتيسره أو أنهم قد كانوا آمنوا قبل هذا كله كما يشير إليه ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وعلى هذا فالإشتراء واضح وجعل باطلهم مكانه وبدله، ولما كان المشتري يحاول أن يشتري بالثمن القليل ما يسوى أكثر وعلى الأقل يتجنب الغبن ويشتري المبيع رغبة فيه، بحيث يبذل ماله لتحصيله، وهؤلاء المنافقون كذلك راغبون في الضلالة رغبة قوية شبهوا بالمشتري، فقيل: ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ مجازاً عن استبدالهم الضلالة بالهدى، ولكنهم غبنوا غبناً فاحشاً، فقيل فيهم تهكماً بهم:

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ لأن الذي ينبغي للمتجر أن يطلب الربح لا أن يطلب الخسران المبين ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ لأنهم قد باعوا الهدى، فرأس المال قد فات ولم يحصل لهم بتفويته فائدة كما يحصل للمشتري في بعض الأحوال مع أن نفي الفائدة تهكم بهم كما قلنا.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ حالهم العجيب، كحال ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ عمل لتحصيل نار، فحصلها ليرى بها في الظلمة

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ باشتعالها، وحصل منها النور المطلوب بتحصيلها ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ بأمر غالب لا يستطاع رده؛ لأن الله غالب على أمره.

﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ لشدة الظلمات المتراكمة عليهم، إما أن يكون معناه: تركهم فلم يفعل لهم شيئاً، فلم يرجع لهم النور، ولم يدلهم على الطريق حال كونهم ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ وإما أن يكون المعنى: صيرهم في ظلمات لا يبصرون.

وأفاد (صاحب الكشاف) أنه يقال: ((ذهب به: إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله: أخذه ـ ثم قال ـ: والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر:٢] فهو أبلغ من أذهبه، وقال: إن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً)) انتهى.

ونظير المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠] وهو عندي أرجح من الثاني؛ لأن تصييرهم في الظلمات يستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

أما تركهم بمعنى ترك الإنقاذ لهم من تلك الحالة فهو معنى جديد، وحاصل التفسيرين واحد، وهو إذهاب الله لنورهم وبقاؤهم في ظلمات لا يبصرون بترك الله لهم فيها أو تصييره، إلاَّ أن إفادة البقاء بتركهم أظهر من إفادة البقاء بتصييرهم.

والراجح في معناها: أن هؤلاء الذي نافقوا كانوا قد أسلموا، ولكنهم سارعوا إلى النفاق، فذهب عنهم نور الإسلام، وصاروا كما وصفهم تعالى، وقد قال تعالى في بعض المنافقين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

وهذا لا يخرجهم عن النفاق إذا كان سراً لا يظهرونـه للمـؤمنين، فكـانوا بالإسلام قد حصّلوا الضوء القوي؛ لأنهم صاروا في صـحبة الرسـول ص ومحل نزول القرآن، وصاروا بمحل يرون طريـق الهـدى واضـحاً كمـا يـرى الطريق بضوء النار الكبيرة التي تضـيء مـا حـولهم، فلمـا نـافقوا ذهـب الله بنورهم؛ لأنه ذهب استعدادهم لقبول الهدى، وصاروا كأن علـى أبصـارهم غشاوة، فكان حضورهم في بلد النبوءة كلا حضور؛ لا ينير لهم نـور النبـوة، فأشبهوا من انطفأت ناره التي كان بها يبصر، فـذهب نورهـا كلـه وصـار في ظلمات لا يبصر.

فهذا المثل يبين سوء حالهم بعد أن كانوا قـد حصـلوا في مظنـة السـعادة، فكـانوا يسـعدون لـولا سـوء اختيـارهم، وكـانوا يهتـدون لـولا اختيـارهم للضلال، أو أنهم كانوا قد أسلموا جادّين في إسـلامهم، ثـم تحوّلـوا، وهـذا المثل أيضاً يشير إلى شدة الظلمة عليهم؛ لأن الظلمة التي يفاجئها البصر بعـد النور تكون شديدةً عليـه، وهـؤلاء كـذلك يشـتد علـيهم الخـذلان وظلمـة القلوب كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـانِهِمْ..﴾ الآيـة [آل عمران:٨٦] وكما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الصـيب: المطر؛ لأنه يصوب أي ينزل فيه ظلمات لكونه في الليل، وقد غطـى سـحابه النجوم فلا تنير لهم، فاشـتدت الظلمـة بالليـل، وتـراكم السـحاب والمطـر، فصارت ظلمات متعددة بتعدد أسبابها على هؤلاء المنـافقين، فشـأنهم حـين يكونون في هذه الظلمة ـ والمطر ينزل علـيهم ـ أن يكونـوا في حـيرة وقلـق، ومع ذلك ما يزيد القلق، وهو الخـوف مـن الصـواعق الـذي يكـون بسـبب الرعد والبرق.

أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ إما لشدة صوتها، وإما لباعث الخوف من الصواعق التي صوتها شديد مع شدة القلق والخوف والاشتغال بالمطر، لا يتذكرون أنّ جعل أصابعهم في آذانهم لا ينجيهم من أن تصيبهم الصواعق.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لا يفوتونه ولا ينجيهم منه جعل الأصابع في الآذان ولا غيره، وهذا تمثيل لإفادة هذا المعنى؛ لأن من أحيط به لا يتخلص من الهلاك، ويكون تحت قهر المحيط به، فكذلك المنافقون المذكورون ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس:٢٧] ولا ينقذهم منه احتيالهم وأيمانهم الفاجرة واعتذاراتهم الكاذبة.

﴿٢٠﴾ ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ حين يلمع بقوة مفاجئة للبصر ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ لشدة حرصهم على الفرار من المطر، وهي لحظات لا تفيدهم ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ البرق بذهابه عنهم أو أظلم مكانهم لذهاب البرق؛ لأن المكان حيث المطر والظلمة قد فهم من السياق ﴿قَامُواْ﴾ وقفوا لحيرتهم مع شدة حرصهم على المشي.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ فلا يسمعون ولا يبصرون، وذلك أشد عليهم؛ لأن من بقي له السمع قد ينتفع بصوت يسمعه يعرف به الجهة التي يريد أن يتوجه إليها في الظلمة، والمبصر قد ينتفع بلمع البرق لحظة، أما من ذهب سمعه وبصره فحيرته أشد وقلقه أكثر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو يفعل بهم ما شاء، فلو شاء لجعل هؤلاء المنافقين في حيرة وقلق وخوف أشد مما هم فيه، وهذا المثل يبين حالهم في نفاقهم وما صاروا فيه من الحيرة والقلق والخوف وعدم القدرة على التخلص من سوء الحال، فهم في خوف من أن يفتضحوا، ويظهر كفرهم فيقتلوا وخوف أن يغلب الكفار فيقتلوا مع المسلمين، وعناء في التستر بالنفاق والأعذار، وانظر حالهم في (سورة التوبة): ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [آية:٧٤] ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [آية:٩٥] ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [آية:٩٤] ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [آية:١٠٧] ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [آية:٩٤] ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [آية:٦٤] ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [آية:٦٥] فخوف من ناحية، وتقريع وتوبيخ من ناحية، واشتغال بتستر لا يجدي وخزي وذلة لا تخلص منها الاعتذارات، وكيف وهي تتنزل فيهم قوارع القرآن والوعيد الشديد، ويكشف القرآن بعض أسرارهم وما في قلوبهم، ويكفي في الدلالة على خوفهم وقلقهم، قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٦-٥٧].

فهم في حال سيئة مظلمة وقلوبهم مظلمة، ختم الله على قلوبهم، فهذا المثل يبين سوء حالهم في النفاق الذي هو أدل دليل على أنهم هم السفهاء حين اختاروا لأنفسهم تلك الحالة كما أن المثل الأول يدل على سفاهتهم حيث عدلوا عن الهدى بعد أن أضاء لهم الطريق وأشرفوا عليه، وكان ذلك أسهل عليهم ممن لم يكن قد أسلم أصلاً، فهذان المثلان يدلان على أنهم هم السفهاء، كما أن اشتراءهم الضلالة بالهدى كان دليلاً على ذلك، ولو لم يكونوا قد أسلموا لوجود الرسول ص في بلدهم ونزول القرآن عليه وهو يتلوه على الناس، فالحق واضح والهدى سهل المنال.

ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ

﴿٢١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ كان الكلام الماضي في ثلاث فرق من الناس باعتبار موقفهم من القرآن؛ الذي أنزله الله هدىً للناس فاختلفوا فيه، وهذه دعوة عامة لأصناف الناس في هذه الآية والتي بعدها تدعوهم إلى الأمر الذي خلقوا له، وتحذرهم من الشرك الذي كان قد انتشر في الأرض مع أنه أكبر الكبائر، وفي قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إشارة إلى أنه تحق له العبادة؛ لأنه مالككم، والعبادة تعبير عن العبودية.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فكلكم عباده تحق له منكم العبادة حقاً عليكم وعلى آبائكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ربكم، أي اعبدوه لعلكم تتقون عذابه، فعبادته بخلاف عبادة الأنداد التي هي مملوكة لله مثلكم ليس لها شرك فيكم ولا تضركم إذا لم تعبدوها فلا معنى لعبادتها، أما ربكم الذي تحق له العبادة فأنتم محتاجون إلى عبادته لتتّقوا عذابه.

﴿٢٢﴾ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ بأن أعدّها لكم صالحة لتعيشوا فيها إعداداً كاملاً، حتى كأنها فراش لكم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥] فمن شاء مشى عليها ومن شاء حرث ومن شاء بنى وغير ذلك، ألا ترى أنه يتعسر ذلك لو كانت متخلخلة يهوي فيها من أراد المشي عليها أو مملوءة بالصخور التي لم يتصل بعضها ببعض، أو كالمفروشة بالمرو الحداد، أو كانت تلولاً كالجبال، لكنه سبحانه جعلها متحملة للمشي عليها والأعمال مهيأة لذلك، حتى كأنها فراش للناس.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي مبنيّة، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] ويحتمل: أنها سقف للأرض من كل جهة، فهي محيطة بها من مسافة بعيدة، ولذلك فالسماء واسعة جداً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

وعلى هذا: فالسماء بناء محيط بالأرض وما حولها وما بينها وبين الأرض من كل جهة ـ والله أعلم ـ ولا بد أن للسماء منفعة للناس تصحح أن تعتبر السماء بناءً لهم وإن لم يعرفوها.

فأما فوائد الشمس والقمر والنجوم فظاهرٌ بعضُها، وقد جاء في القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات:٦-٧] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١] وقال تعالى حاكياً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥-١٦].

فلا يبعد أن تسمى السماء بناء من أجل النيرات ؛ لأنها كالسقف، والنيرات كالمصابيح المعلقة في السقف، وهذا المعنى هو الظاهر؛ لأنه المعلوم عند المخاطبين من قبل نزول القرآن، ولا بد أن للنيرات علاقة بالسماء أوجبت اعتبارهن كائنات فيها وزينة لها، مع أنه يكفي في صحة الظرفية كون السماء محيطة بالفضاء وما فيه من الكواكب والشمس إن كانت فيه والقمر، فالحاصل أن السماء بناءٌ لأهل الأرض بمعنى أنها محيطة فوق كل جهة، ولهم فيها منافع بما فيها من الشمس والقمر والكواكب.

وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ

فأما الفوائد التي لا تعرفها العرب فلا يجب أن تكون مقصودة هنا؛ لأن الكلام مسوق لإثارة دفائن العقول ليعلموا بعقولهم بهذه الأدلة أن العبادة تحق له وحده ولا تحق لغيره ويحتج عليهم بما يعلمون، ولعله من أجل ذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي تعلمون هذه الدلالة على أنه هو الذي يستحق العبادة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من جهة العلو حيث يكون السحاب، قال تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الروم:٤٨] وفائدة ذكره: أنه بعيد عن الناس لا تناله أيديهم ولا يقدر على إنزاله إلاَّ الله فإنزاله من السماء آية ونعمة.

﴿مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ أما كونه للشرب فظاهر، من أنه ماء نزل من السماء، فبيّن سبحانه أنه الذي خلق الناس ورزقهم فهو الذي تحق له العبادة والشكر؛ لأنه المالك المنعم.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ لأنها لم تخلق ولم ترزق، وليس لها ملك في الناس، بل هي مربوبة مثلهم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنه الذي خلقكم وآباءكم وخلق ما تحتاجون له من الماء والرزق وهو القادر على كل شيء كما قدر على خلقكم، وإنزال ماء صالح للشرب والسقي، وإخراج الثمرات المنوعة بقدرته، وهو العليم بكل شيء كما أتقن صنعكم وصنع أرزاقكم، فكيف تجعلون له مماثلاً في استحقاق العبادة وهو مخلوق ضعيف لم يخلق ولم يرزق.

﴿٢٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ شك وقلق ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ محمد ص وهو القرآن الكريم بتوهم أنه تقوّله ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ في الحكمة والإتقان وحسن التعبير؛ لأنه إذا قدر أن يتقولَّه ؛ قدرتم أن تتقوّلوا

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ﴾ (٢٤)

مثله في الحكمة والإتقان وحسن التعبير كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤] وقال تعالى في (سورة يونس): ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [آية:٣٨] فظهر أن ﴿مِّن﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي للبيان ولو كانت للتبعيض لكان المعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله، وليس المراد كما بينا.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ ليشهدوا على إتيانكم بسورة من مثله، وتفسير الدعوة بهذا أظهر؛ لأنها مقرونة بذكر الشهداء، فكانت كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ وهذا يفيد: أنهم لو قالوا كلاماً وزعموا أنه مثل القرآن وسموه (سورة) لما وجدوا شهداء يشهدون بذلك؛ لوضوح الفرق وافتضاح الدعوى، فالناس يستحيون من الشهادة بذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام:١٥٠].

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنه سبحانه يعلم أنكم لن تفعلوا، فكيف يشهد لكم بالفعل فلا معنى لدعوته للشهادة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في تجويز أنه تقوّله لتبينوا أنكم على صواب في الارتياب فيه.

(٢٤-٢٦) ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ لم تأتوا بسورة من مثله بعد هذا التحدي ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ لن تأتوا بسورة من مثله أبداً، فقد بان لكم أنه لا ريب في أنه كلام

الله أنزله على رسوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا﴾ حطبها الذي توقد به ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أي جنس الناس، والمراد الذين استحقوها بمعصية الله ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فهذه النار ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا تكفروا بالقرآن والرسول، وآمنوا لتنجوا منها، وجملة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ حاليّة.

أي فاتقوا النار حال كونها أعدت للكافرين، ولما أنذر الكافرين اتبعه التبشير للمؤمنين، وهكذا جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصالح ضد الفاسد.

وفي (حديقة الحكمة) للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × : «الصلاح في أصل اللغة: هو السلامة من الآفات، وهو نقيض الفساد في كلامهم، انتهى. وقال × : وصلاحها ـ أي الأعمال ـ سلامتها من آفات التبعات» انتهى.

وتكرر في القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون وعملوا الحسنات، ولعل الحكمة فيه: أن صلاح العمل لا يكفي أنه في الأصل حسن حتى ينضاف إلى ذلك أنه خالص من الرياء سليم من الإحباط، فلا بد من الإخلاص والتقوى ليكون مقبولاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

فالعمل الذي لم يخلص لله لا يعتبر صالحاً، وكل عمل محبط فهو غير صالح، بل هو كالزرع الذي أصابته آفة كما أن عامله لا يعد من الصالحين؛ لأنه معيب كأن به عاهة وفساداً، أما العمل الخالص لله المقرون بالتقوى والإيمان، فهو كالزرع السليم من الآفات والعوائق الذي ينمو ويثمر.

﴿أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ هذه (اللام) تفيد: أنها لهم ملك أو شبه الملك، وتفيد: أنها صارت حقاً لهم، والجنة هي الأشجار أو الزروع الكثيرة التي تجن أي تغطي ما فيها.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تكرر في القرآن الكريم هذا الوصف؛ لأن الجنات تحتاج إلى ماء وإلا اصفرت أوراقها، ثم يبست، أما إذا كان الماء يجري من تحتها، فهي لا تزال في صلاح ونمو وإثمار وخضرة جميلة تسر الناظرين، وفائدة أخرى: أنها لا يلحق أهلها عناء بسقيها كجنات الأرض التي تسقى من الآبار، بل الماء يجري من تحتها، وهذه صفتها، فلا تحتاج إلى إيصال الماء إليها من الآبار، والنهَر مجرى الماء الواسع، وفائدة أخرى وهي أنه يجتمع جمال الخضرة وجمال الماء ويتمم كل منهما جمال الآخر.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا﴾ أي من نوع من ثمارها ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ أول ما أعطينا في الجنة ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ في حسنه ونفعه ولذته، قال السيد العلامة الكبير عبد الله بن أحمد الشرفي اليماني الزيدي، أحد تلاميذ الإمام القاسم بن محمد × في تفسيره (المصابيح): ((قال المرتضى ـ يعني الإمام محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليهم السلام ـ: وقال بعض من يتعاطى العلم: أن معنى هذا الذي رزقنا أي في الدنيا وشبهوه بالثمر الأوّل، وليس ذلك عندي كذلك؛ لأنه إذا كان ثمر الجنة كثمر الدنيا فلا فضل إذاً لنعيم الآخرة على نعيم الدنيا، وهذا مخالف للكتاب محال عند ذوي الألباب.

والمعنى في ذلك عندي: أن معنى قول أهل الجنة: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ يريدون بذلك: أنه لا يصلهم من الله ـ عزَّ وجل ـ رزق إلاَّ أعجبهم ووقع بمرافقهم.

ثم يصل بهم من بعد ذلك أرزاق تكون في الجودة والموافقة كالأول سواء؛ لأن أرزاق الدنيا منها موافق ومنها مخالف ومنها طيب ومنها رديء، وأرزاق الجنة كلها مؤتلفة مصيبة للشهوة، وقد فسر الله ذلك في آخر الآية، فقال سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وقد قال بعض الناس: متشابهاً في الألوان، وذلك خطأ من المقال، وإنما المعنى: وأوتوا به متشابهاً في الإرادة والشهوة والمحبة؛ لأن أرزاق الدنيا لا تشتبه عند صاحبها...» إلخ.

قلت: هذا تفسير حسن جداً، وهو وإن كان فيه حمل الكلام على التشبيه فقرينته ظاهرة، وهي أن الحمل على الحقيقة يؤدي إلى القول باستمرار أهل الجنة في الغلط وتكرار الغلط كلما رزقوا من ثمرة، وهذا بعيد جداً؛ لأن التجربة مرتين أو نحوها تكفيهم لمعرفة الغلط وتدعوهم إلى السكوت عن هذا الكلام؛ لأنهم أهل حكمة كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

فإن *قيل*: إنهم لا ينكشف لهم الخطأ، بل لا يزالون في الخطأ أبداً؟

قلنا: إنه يستلزم أن لا يعلموا أن قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً؛ لأن من جملة الوعد هذه الآية، وقد أفادت أنهم يرزقون ثمرات مختلفة متشابهة، وهم في خطئهم يعتقدونها ثمرة واحدة تَرِدُ عليهم كل مرة، فأين وجدانهم لما وعدهم ربهم حقاً.

فظهر: أن ليس المراد ذلك، وأن المعنى: أنهم أعجبوا بالأول، فكانت لا تزال في أنفسهم لذته وفائدته لكونه الأول، فلم يزالوا يذكرونه عند كل رزق يماثله في اللذة والمنفعة، فيخبروا أنه مثله تعبيراً عن تكرار النعمة الكاملة، وهذا من طيب القول؛ لأنه شكر للمنعم، فظهر أن قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ من التشبيه المؤكد.

فأما قول من قال: إن المراد التشبيه بما رزقوا في الدنيا، فهو بعيد كما قال المرتضى × .

ولا معنى لتكرار القول في كل مرة بهذا المعنى، وأكثر أهل الدنيا فقراء لم ينالوا ثمرات الدنيا كلها لاختلاف البلدان في الثمرات وقلتها في بعض البلدان، ولا تكاد تجتمع أنواع ثمرات الدنيا في بلد واحد طيب فضلاً عن الخبيث الذي لا يخرج نباته إلاَّ نكداً، فكيف يقولون: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ولم يرزقوا إلاَّ بعضه، فظهر ضعف ذلك التفسير. [انتهى البحث].

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ أي في الجنات ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ نساء مطهرات في خَلْقِهِنَّ، ليس فيهن وسخ ولا حيض، وظاهره أن في كل جنة من الجنات واحدة أو أكثر، فالذي له جنات تتعدد أزواجه كما في (سورة الرحمن).

ويمكن أن الله تعالى فرق صفات الحور، كما فرق صفات الجنة في القرآن لحكمة في ذلك، تشويقاً للقارئ حيث يطلع على وصف في آية فيرغب لأجله وحده، ثم يطلع في موضع آخر على وصف آخر فتجدد رغبته وتقوى، ثم يطلع على وصف زائد على ما قد وجد، فتزداد رغبته وتجدد له عند كل وصف رغبة مع الرغبة الأولى، ولا تزال تجدد له الرغبة بتجدد الأوصاف، وهكذا في الإنذار والتخويف.

وعلى هذا فلا نحتاج إلى قولنا: لعل وصف الحور بالطهارة دليلٌ على أن الطهارة أهم أوصاف الحور، ويكفي أن نقول: إن ذلك ترغيب كامل مستقل يدل على أهمية الطهارة في الترغيب، ولا حاجة إلى أن نقول: يشمل التطهير الخُلُقي؛ لأنه وإن كان من أوصافهن فلا يجب ذكره هنا، وله محل آخر أي للحصانة والعفاف، وهذا هو الراجح لعدم الدليل على إرادة المعنيين هنا.

﴿وَهُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ قال القاسم بن إبراهيم × في (تفسير سورة البينة): ((وتأويل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهو بقاؤهم أبداً بعد المصير إليها)) انتهى.

ومعناه: أنهم لا يزالون أحياء لا يموتون، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥] وفي (معلَّقة طَرفَه):

ألا أيُّ هذا الزاجرى أَحْضرُ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهكذا اقترن الوعيد بالوعد كما سيقترن معناهما في الوقوع يوم القيامة، وفي الجمع بينهما زيادة ترغيب وترهيب، لما يستفاد من المقابلة من الترهيب بالنار، وفوات الجنة، ومن الترغيب بالجنة والسلامة من النار ، وبضدها تتميز الأشياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير هذه الآية: ((قال المرتضى × : الاستحياء من الله ـ عزَّ وجل ـ ليس من طريق الخجل ولا الحصر، ولا يتوهم ذلك من له دين أو معرفة بالله أو يقين، وإنما المعنى في ذلك: أنه لا يرى في التمثيل للحق والصواب والصدق بما صح من الأمثال عيباً ولا خطأ ولا مقالاً لأحد من أهل الكفر والضلال، بل ذلك عند الله ـ تبارك وتعالى ـ صواب وصدق حسن، وذكر مثل هذا سواءً الهادي ×)) انتهى.

قلت: فالمعنى: أنه ليس عيباً عند الله أن يضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، ولا هو مما يتعلق به الحياء في نفس الأمر.

قال في (الكشاف) بعد إيراد كلام حسن في تفسير الآية: ((ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟؟،فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديع وطراز عجيب..)) إلخ، راجع (الكشاف) إن شئت.

قال الشرفي: ((و [ما] هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً، كقولك: أعطني كتاباً مًّا، تريد أي كتاب كان أو صلة للتأكيد، كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء:١٥٥])) انتهى.

قلت: والأول أحسن لأنه مطابق للمقصود؛ لأن المراد أيّ مثل أراده سبحانه ولأي معنى صحيح ضربه، مع أن كونها صلة في هذا الموضع لا يعرف له نظير، ولم يمثل له في (مغنى اللبيب).

قال في (الكشاف): ((وضرب المثل اعتماده وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وقال: وانتصب بعوضةً بأنها عطف بيان لِمثلاً أو مفعولٌ ليضرب، ومثلاً حال عن النكرة مقدمة عليه، أو انتصبا مفعولين فجرى ضرب مجرى جعل)) انتهى.

قلت: هذا الآخر أظهر؛ لأن المعنى في هذه الآية وأمثالها جعل الشيء مثلاً، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ [النحل:١١٢] وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ [النحل:٧٦] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا﴾ [النحل:٧٥] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الزمر:٢٩] ولا يصح عطف البيان في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ [الزخرف:٥٧] ولا الحال في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت:٤٣] وقد جاء التصريح بجعل في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ لأنه صواب في نفسه لا موجب للحياء منه، ولأنه من الله العزيز الحكيم الذي لا يقول ما هو عيب ونقص ـ سبحانه وتعالى ـ فلو لم يعرفوا وجه صحته لآمنوا بأنه الحق من الله؛ لعلمهم أن هذا القرآن كلام الله لا ريب فيه ولا اشتباه وإيمانهم به.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً﴾ استنكاراً لجعله مثلاً، وتجاهلاً بالحكمة فيه، والغرض من ذلك الجدل في القرآن، وإن نسبوه إلى الله، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] وجاء الجواب عنهم: إن الله أراد به الفتنة والاختبار.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ باختباره لهم المؤدي إلى كشف ما كان مستوراً منهم، والذي ازدادوا عنده رجساً إلى رجسهم ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ باختبارهم المسبب لزيادة إيمانهم لما فيه من توضيح الحق والحكمة.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الذين هم بفسقهم مستعدون للضلال به، مستحقون للخذلان، والفسق: الخباثة والفجور، ألا ترى إلى هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ والمقابلة بين المؤمن والفاسق في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة:١٨] وقال في أصحاب القرية الذين اعتدوا في السبت: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥] وقال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] وقال تعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

فظهر: أن الفاسقين: هم الخبثة الفجار بأي سبب، ويناسب ذلك قول العرب للعاهرة: فَسَاق، وإن كان ما يعد خباثة قبل الإسلام أقبح من بعض ما يعد خباثة بعد الإسلام، كسباب المؤمن، ونبزه باللقب السيء، ومضارة الكاتب أو الشهيد.

بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ **العهد:** الوعد المؤكد باليمين، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّـهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل:٩١] وقال تعالى:﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:٣٤].

فهذا المعنى هو الذي ينسب إليه الوفاء أو النقض، فأما العهد بمعنى التوصية فينسب إليه الطاعة أو المعصية أو نحو ذلك، ونقض العهد إهماله وترك اعتباره بالحنث كأنه كان عقدة محكمة فنقضها بمخالفة العهد كأنه جعلها في اعتباره لها وصيرها منقوضة، والميثاق توثيق الوعد وتقويته ليوثق به، قال: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ [يوسف:٦٦].

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فسره في (الكشاف): بقطع الأرحام، وقطع موالاة المؤمنين، ولا إشكال أنها عامة في كل ما أمر الله به أن يوصل ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو الفساد الذي من شأنه أن ينتشر في الأرض، كمحاربة الدين، ومحاربة اقتصاد أهله ليغلبوا، وإيراد الشبهات ضد الحق، ونشر الدعايات التي يعم فسادها ونحو ذلك، فهذا الفساد هو الفساد في الأرض، ومنه كل ما يعم ضره كتحريق كتب الهداية وإضاعتها عن طلابها، وقتل علماء الدين.. ونحو ذلك، فهو كله إفساد في الأرض، ينسب الإفساد في الأرض إلى من فعل خصلة منه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قد استحقوا الإضلال بهذه الجرائم كـانوا قد اشتروا الضلالة بالهدى، وتلك الصفقة الخاسرة لما تؤدي إليـه مـن سـوء العاقبة وعذاب الآخرة وفوات فائدة ثواب أهـل الهـدى الـذي هـو جنـات النعيم، وهذا لأن هذه الآية مرتبطة بالتي قبلها بقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِـهِ كَـثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِـلُّ بِـهِ إِلاَّ الْفَاسِـقِينَ﴾ وقولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ..﴾ إلى آخر الثلاث، صفة للفاسقين الذين يضلهم بضرب المثل المذكور، أي يبتليهم به ويفتنهم ويختبرهم به فيضلوا.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنـا المنصـور بـالله × : تـدل علـى تحريم نقض عهود الله، وعلى تحريم قطع ما أمر الله به أن يوصل مـن صـلة الأرحام، وإيتاء ذي القربى، وأداء الأمانـة إلى أهلـها، ومـودة ذوي القربـى، والاجتماع على الحق، وترك التفرق في الدين إلى غـير ذلـك، وعلـى تحـريم الفساد في الأرض)) انتهى.

قلت: كل علاقة واجبة، فهي داخلة في ذلك كموالاة المـؤمنين، ولمـا كـان الكافرون قد ذكروا ووعدوا بالنار وكان كفرهم بالقرآن والرسول قد احـتج لإبطاله بقوله تعـالى: ﴿وَإِنْ كُنـتُمْ فِـي رَيْـبٍ مِمَّـا نَزَّلْنَـا..﴾ إلى آخـر الآيـات، وكفرهم بالتوحيد قد سبق إبطاله بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وبقي كفرهم بـاليوم الآخـر لمجـرد استبعاد إحياء العظام وهي رميم؛ لأنهم كانوا جامعين بين هذه الأنـواع مـن الكفر، وكان كفرهم باليوم الآخر يتضمن نفي قدرة الله وعلمه قدرته علـى إعـادتهم وعلمـه سـبحانه بأجسـادهم وقـد ضـاعت في الـتراب ردّ علـيهم سبحانه بقوله:

خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي قبل إحيائكم في بطون أمهاتكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فهو الذي يحيي ويميت، فكيف لا يقدر على إعادتكم، بل لا بد من الإعادة، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إليه وحده دون شركائكم، فيجازيكم بكفركم، فقد جمعت الآية الاحتجاج عليهم ووعيدهم وتوبيخهم على الكفر، مع أنه سيعيدهم ثم إليه يرجعون فيعاقبهم، ولا يجدون من يشفع لهم أو ينصرهم؛ لأنهم يرجعون إليه وحده يحكم فيهم ما يريد.

﴿٢٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وذلك نعمة عليكم، فحق عليكم أن تشكروا ولا تكفروا، وهو دليل على قدرته على إعادتكم، من حيث هو دليل على أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن صنع ما في الأرض من حاجات الإنسان المطابقة لحاجته المناسبة لخلقه وإتقان صنعها، وما فيها من اختلاف الصور المحكمة والألوان والطعوم والروائح وأسباب النفع، كل ذلك دليل على أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ تمثيل لصنعه للسماوات بصنع من يتجّه إلى المصنوع ويقبل على عمله فيه ويقصد إليه لا يلتفت إلى غيره، وذلك في المخلوقين يكون لقوة الرغبة في ذلك العمل، أو لشدة الاهتمام به لصعوبته، ولا يصح التمثيل بهذا لله سبحانه؛ لأنه لا يصعب عليه شيء، فما بقي إلاَّ التمثيل بالأول.

ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

ولعل المراد: التنبيه على الإرادة بلا إهمامة؛ ليدل على أنه فعال لما يريد، فأما ﴿ثُمَّ﴾ فيظهر: أنها هنا للترتيب بين الآيتين في الاستدلال، لا للترتيب في خلق الأرض وخلق السماء؛ لأنه تعالى قد جمعها في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١] ونظير الترتيب لغير الترتيب في الوقوع قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم قد ساد قبل ذلك جده

فهو ترتيب المدح لا تعبير عن الترتب في الوقوع.

أما قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٢٧-٣٠] فيظهر منه: أن دحو الأرض وتهيئتها لمعيشة البشر متأخر عن خلق الأرض والسماء؛ لأن الليل والنهار بالنسبة إلى الأرض إنما هو بعد خلقها، وكما تشير إلى ذلك الآيات في (سورة فصلت) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [آية:٩-١٠] فظهر: أن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إنما هي للترتيب في ذكر الدليلين.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تسويتها إحكام صنعها سليمة من النقص والخلل، وهذه دلائل على قدرته وعلمه، فكيف تكفرون به وهو بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه كيف يعيدكم إذا ضللتم في الأرض.

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر في شأن علمه تعالى بكل شيء، إذ قال ربك ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ والخليفة: هو الإنسان، كأنه خليفة لله سبحانه؛ لأنه يظهر مكنون آياته المخبوءة في الأرض ولأمور غير ذلك.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نقول تنزيهاً وتبرئة من العيوب وتبعيداً عن النقائص حامدين لك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نقول تنزيهاً لك وتبعيداً عن العيوب عابدين لك بالتقديس، فالتسبيح: تنزيه عن العيوب وعما هو نقص من العظمة والجلال.

والتقديس: تنزيه عن القبائح، وفائدة الجمع بينهما؛ التصريح بالتنزيه عن القبائح، قد أعلمهم الله سابقاً أن الإنسان سيكون منه من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فسألوه أن يجعلهم هم الخليفة في الأرض ليسبحوا بحمده ويقدسوا له في الأرض؛ لأنهم يحبون الله، ويكرهون أن يستخلف من يعصي.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فأنا أعلم حكمة لا تعلمونها في جعل الإنسان خليفة، وإن كان منه من ذكرتم.

وحكى الشرفي في (المصابيح): عن المرتضى محمد بن الهادي إ في تفسير هذه الآية ما لفظه: ((وقلت: ما معنى جواب الملائكة حين يقولون: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الخبر جاءهم من عند الله أم [من] عند أنفسهم؟

قال × : فهذا الخبر خبر غيب لا يعرفه الملائكة ولا تقع عليه إلاَّ بإخبار الله لهم، ولكن الله ـ عزَّ وجل ـ قد أطلعهم عليه وأخبرهم بما يكون من بني آدم من سفك الدماء والإفساد في الأرض وما يكون منهم من عناد، فكان هذا منهم استفهاماً لا معارضة ولا شكّاً في أمر الله تبارك وتعالى، وأعلمهم سبحانه أنه يعلم ما لا يعلمون، بما سيكون من المؤمنين والأنبياء المبعوثين إليهم، والأمر والنهي الذي بثه فيهم، وما في ذلك من الصلاح.

ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَـٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ

فكانت معصية الخلق من أنفسهم اختياراً بلا جبر من الله لهم، ولا إدخال في معصيته، ولا إخراج من طاعته، ولم يكن فعل هؤلاء المختارين للمعصية ـ من بعد أن مكنهم سبحانه من الطاعة وبيّن لهم ما فيه النجاة ـ بموجب ترك خلقهم ورفض إظهار الحكمة فيهم وما أراد سبحانه من الصنعة وإيجاد البرية وإظهار القدرة، وقد علم الله ما يكون من فعل النبيين وطاعتهم واجتهادهم له وما يكون من المؤمنين من الطاعة والعبادة والتسليم لحكمه، والمجاهدة للظالمين حتى يفيئوا إلى أمر الله ويرجعوا إلى طاعته، فكل هذا خير كبير وفضل جليل علمه الله أنه سيكون من ولد آدم، ولم تعلمه الملائكة حتى علّمها الله به وفهّمها ذلك)) انتهى.

قلت: هذا كلام جيد، ومن فوائد إيجاد الخليفة: اختبار الملائكة بأمرهم بالسجود لآدم ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ولا نحصر فوائد ذلك لقصور علمنا.

﴿٣١﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ عمومه يدل: أن قد علمه اسم كل جنس من أجناس المخلوقات، كالماء، والنار، والحديد، والذهب، والفضة..إلى غير ذلك، ولعله سبحانه علمه ذلك إعداداً للخلافة في الأرض، فعرفه ما فيها من المعادن والشجر والدواب وغيرها ليدري كيف ينتفع هو وذريته بما خلق لهم فيها، من حيث أن تعليم الأسماء من حيث هي أسماء يستلزم تعريف المسميات، ويؤكد ذلك قوله سبحانه:

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فالمعنى: عَرَضَ المسميات على الملائكة بتغليب العقلاء، وهو سبحانه وتعالى قادر على عرض الأجناس التي خلقها كلها، فلا نحتاج إلى أن نقول المراد عرض صورها كما في التلفزيون والسينما، فإن كان المراد عرض ما قد خلق وما سيخلق، فعرض ما سيخلق عرض صورته.

وقوله سبحانه للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ أي قولوا لي بأسماء هذه الأشياء المعروضة عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنكم أهل للخلافة في الأرض، حيث قلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ فإذا لم تعلموا أسماءها، كما علم آدم × فهو وذريته أحق منكم بالخلافة في الأرض؛ لأنهم بتصرفهم في الأرض بالحرث وغيره، وبتصرفهم فيما خلق لهم فيها يظهرون آيات كثيرة تدل على الله، وينتفعون فيها بنعم كثيرة تدل على كرم الله، كالطائرة، والسيارة، والكهرباء، وما فيه من المنافع، ولولا الإنسان ما ظهرت هذه الأشياء، ولكن ظهرت على يديه؛ لأن الله علمه ما لم يعلم، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ سبحانك أنت أحكم الحاكمين، وأنت علام الغيوب، وعلمنا قاصر عن علم أسماء هذه الأشياء ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العليم بكل شيء الحكيم في كل قضاء.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أي أخبر الملائكة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ بأسماء ما عرض على الملائكة ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ وتبيّن لهم امتياز الإنسان بعلم ما جهلوا.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان هذا يغنيكم عن السؤال بقولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ لأنه حلٌّ لكل إشكال يعرض في أي شيء من أقواله سبحانه أو أفعاله أن يعلم العبد أن الله سبحانه يعلم وجوه الحكمة كلها، وليس جهلنا بالحكمة في بعض الأشياء دليلاً على عدم الحكمة؛ لأنا قد نجهل الحكمة ثم نعلمها بعد الجهل بها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيدهم: أن لها غيباً، والغيب: ضد الشهادة، فهم يشاهدون الأرض ولا يعلمون ما أخفي فيها من منافعها ومصالحها وفوائد ما فيها، وكذلك السماوات، فغيب السماوات والأرض يعلمه الله سبحانه، وقد أفهمهم أن لها غيباً يعلمه سبحانه ولا يعلمونه، والظاهر في الإضافة أنها على معنى في، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

وإذا كانت الإضافة على معنى (اللام) شمل العموم فوائد الأجزاء، وما يترتب عليها مما تقتضيه الحكمة، وما يتعلق بهما من المغيبات التابعة لوجودهما، ولا يجب أن يكون غيب السماوات والأرض خارجاً عنهما وإن كانت الإضافة على معنى (اللام) كما لو قيل: يعلم ما لهما من الفوائد المحجوبة فيهما.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ لا يلزم منه أنهم قد صاروا بإنبائه لهم عالمين بها كما يعلمها آدم؛ لأن الغرض من إنبائه لهم أن يعلموا امتيازه بعلم الأسماء لا أن يصيروا عالمين بها كما يعلمها؛ لأنه يمكن أن لا يحفظوا كل ما سمعوه لعدم إعدادهم لحفظه، والأقرب: أن المعروض على الملائكة الجمل من المسميات ليسهل إخبار آدم لهم بها؛ لأن إنبائهم بالأسماء كلها على التفصيل يطول ويستغرق زماناً طويلاً.

وعلى ذلك: لا يكون أنبأهم بالأسماء كلها على التفصيل، فمثلاً عرض عليهم الحيوان والشجر والمعادن وأسماؤها الجملية ثلاثة أسماء، وهكذا سائر الجمل، وهي تشتمل على أصناف كثيرة جداً وأسماؤها كثيرة جداً تستدعي قاموساً، فلا يلزم أن يكون الملائكة عليهم السلام قد علموا الأسماء كلها كما علمها آدم × .

وكذلك لا يلزم أن تكون مسميات الأسماء كلها هي من غيب السماوات والأرض، وإنما يلزم أن يكون بعضها غيباً أو أن يكون بعض أسمائها غيباً؛ لأنهم قالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ولم ينفوا علمها كله، وعلى هذا فالأسماء هي شاملة لأسماء غيبها وشهادتها وحين أنبأهم آدم بأسماء ما عرض عليهم ظهر لهم بعض ما كان غيباً في حقهم، فصح أن يرتبط بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فالإبداء والكتمان من بعضهم لبعض ولبعضهم من بعض، وذلك كالجواب على قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فكأنه قال: أنا أعلم بما تسرون وما تعلنون، ولم يقرهم على دعواهم الصلاحية؛ لأن في جملتهم إبليس، فقوله: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد: أنه يعلم ما فيهما من المناسبة والصلاحية لإسكان أهلهما فيهما وما في أهلهما من الصلاحية لهما.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يفيد: أنهم لا يعلمون ما يكتمون، فدعواهم إنما هي مبنية على الظاهر، والله أعلم بالحقيقة، وهذه كالتقدمة لابتلائهم بالأمر بالسجود لآدم الذي عنده انكشفت حقيقة إبليس، وأنه لم يكن في عبادته على يقين ـ والله أعلم.

وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

وبهذا يظهر: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كان جواباً عليهم في كلامهم في الإنسان، وفي كلامهم في أنفسهم، حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وفي هذه القصة الكريمة فوائد:

الأولى: بيان أن الله بكل شيء عليم، عالم الغيب والشهادة، عالم ما كان وما سيكون.

الثانية: أن نعتقد الحكمة والصواب في كل أفعاله - سبحانه - وأقواله سواء عرفنا وجه الحكمة أم جهلنا؛ لأنه يعلم ما لا نعلم، فجهلنا بها لا يدل على عدمها.

الثالثة: أن لا نزكي على الله أحداً إلاَّ من زكاه الله؛ لأنا لا نعلم إلاَّ الظاهر في غير من زكاه الله تعالى، ومن زكيناه، فالمعنى: أنا نعتقد ذلك بناءً على الظاهر، ونبني على هذا الاعتقاد الموالاة والمعاملة وإن لم نقطع بالمغيب عنا من سرّه الذي قد يكون هو غافلاً عنه، وليس المراد بالتزكية له القطع على مغيبه، ولعل هذا هو ما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

﴿٣٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذۡ قُلۡنَا﴾ القائل: هو الله، وهذه نون العظمة، فيها مناسبة لأمره تعالى للملائكة كلهم وابتلائه لهم؛ لأنه مالكهم يحكم فيهم ما يريد ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ السجود هنا: تعظيم بغير عبادة لآدم، وهو ـ وإن كان سجوداً لآدم ـ فهو عبادة لله؛ لأنه طاعة له، وتسليم لأمره، وخضوع له؛ لأنه ربهم المالك لهم الذي له الحكم فيهم.

ولم يسألوا لماذا صح السجود لآدم؟ لأنه قد تقرر عندهم أن الله هو العليم الحكيم، وأنه يعلم ما لا يعلمون، فالسجود لآدم عبادة لله من حيث هو طاعة، ومن حيث هو تسليم، فسجودهم لآدم سجود لله بهذا المعنى، وليس هذا السجود لآدم، وكذلك السجود ليوسف ليس عبادة؛ لتجرده عن معنى العبادة الذي هو الاعتراف بالعبودية، كما يفيده قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ الآية [النساء:١٧٢] أي عن الإقرار بالعبودية، والاعتراف بأنه عبد لله.

وقوله تعالى في المشركين: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] وفي هذه الآية وأمثالها دلالة على أن صيغة الأمر من الله سبحانه تفيد الوجوب؛ لأنه وجب عليهم السجود بقوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وسمّى قوله ذلك أمراً في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢] فدل على أن تلك الصيغة أمر.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ امتثالاً لأمر الله ربهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ أن يسجد، أي امتنع من امتثال هذا الأمر ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ عن السجود لآدم، اعتقد في نفسه أنه أكبر من أن يسجد لآدم ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كان من جملة الكافرين، وكفره إما بجحده للحكمة والصواب في الأمر بالسجود لآدم كما يفيده قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢] وقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف:١٢] وأما إنه كان كافراً من قبل.

فمعنى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي من قبل، وذلك باعتقاد باطل كان يكتمه عن الملائكة، هذا إذا كان معنى الكفر الجحود، فإن كان معناه الرفض والمباينة، كقولهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] فظاهر، وكذا إن كان معناه ضد الشكر، كما في قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ..﴾ الآية [النمل:٤٠].

والظاهر: أنه قد كفر بالمعاني الثلاثة كلها، فيحمل عليها كلها، على قول من يصحح استعمال المشترك في معانيه جميعاً إذا لم يوجد قرينة تعين المقصود من معانيه، ولكن كفره بجحد الحكمة والصواب أقرب؛ لاقترانه بما ذكر في الآية فيحمل عليه، وإن كانت المعاني قد اجتمعت فيه.

وهل استثناء إبليس متصل كما هو الظاهر لدخوله في أمر الملائكة بالسجود فيشكل جعله من الملائكة مع قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]؟

والجواب: أن العرب لا تعرف الملائكة جنساً خاصاً كجنس البشر، وإنما تعرف أنهم خلق آخر في السماء مكرمون عند الله مقربون، وليس في مفهوم اسم الملائكة عندهم أنهم خلقوا من أصل واحد.

وعلى هذا: فيجوز أن تختلف أصولهم مع كونهم كلهم ملائكة، ويمكن أن نجعل الآيتين دليلاً على ذلك، فقد دلت آية على أنه كان من الملائكة حين أمروا بالسجود وشمله الأمر كما شمل كل واحد منهم، ودلت الآية على أنه كان من الجن، ولا مانع من ذلك في العقل ولا في المعلوم من السمع، ولعل سبب مصيره ملكاً طول عبادته مع الملائكة في السماء، فقد روي أنه عَبَدَ الله ستة آلاف سنة.

فإن قيل: فيشكل هذا على ما سبق من احتمال أنه كان كافراً من قبل؟

فالجواب: أنه يحتمل أنه كان عابداً مخلصاً، وفي آخر أمره فتن مثلاً عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والله أعلم، وعلى هذا فلا تعارض بين كونه صار ملكاً لطول عبادته مع الملائكة، وكان كافراً بعد ذلك قبل الأمر بالسجود لآدم، وفي هذا الموضع اقتصر من قصة إبليس على ما ذكر كأن المقصود ما أشار إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

فبالنسبة إلى قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ذكر (قصة الأسماء) وبالنسبة إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ذكر قصة إبليس، فبين بالقصتين أنه يعلم ما لا يعلمون في شأن الإنسان وفي شانهم.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ العطف على ﴿قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ إلى آخر القصة عطف على قصة إبليس في امتناعه من السجود، قصة إغوائه لآدم وحواء، وإخراجه لهما من الجنة.

وقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ معناه: أقيما في الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ رزقاً واسعاً رافهاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من الجنة تجدان المأكول كثيراً في كل ناحية أردتما الأكل فيها.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هذا نهي أفاد التحريم للشجرة المشار إليها، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالمعصية؛ لأن معصية العبد لمالكه المنعم عليه حيف وجور ضد العدل، فهو ظلم بهذا المعنى، وإن لم يكن ضراً على الله سبحانه وتعالى بل ضره على العبد فيقال: ظلم نفسه من حيث أن ضره عليه، لا لأنه مفهوم الظلم هنا.

ومثله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] معناه: شديد الحيف والجور والتعدي؛ لأن الله هو الخالق المنعم بالنعم التي لا نحصيها، فهو المستحق للعبادة، فصرفها لغيره حيف وجور شديد، وليس المراد أن الإنسان لا يظلم نفسه بالمعاصي، وإنما المراد أن ذلك معنى الظلم في هذا السياق، وأمثاله مما يراد به تحقيق الوقوع في المعصية كما أن ظلم الإنسان نفسه المراد في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] أو هو من معناها.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ جعل الشيطان هذه الشجرة سبباً لزلتهما، والزلة الخطيئة، ولعلها سميت زلة تشبيهاً بالزلة في الطين، ونحوه مما يسبب لسقوط الإنسان، فكأنهما إنزلقا إلى الخطيئة انزلاق من لا يشعر أنه يسقط في طين أو نحوه، وهذا يشعر بأنهما إنما أكلا منها بخديعة من الشيطان وحيلة لا جرأة على الله وتعمداً لمعصيته، فهو يناسب ما يروى مما يفيد: أنهما أكلاها بضرب من التأويل وهو أنها كانت زرعاً، والمنهي عنه شجرة البر، فأكلا منها على تجويز أن المنهي عنه شجرة الشعير، وترددهما في المنهي بعد علم آدم أنه البر لنسيانه.

وهذا لا يستقيم على تفسير الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بأنها إشارة إلى عين الشجرة وشخصها، إنما يستقيم على تفسير الإشارة بأنها إشارة إلى الجنس، كما في الحديث في شجرة الثوم: ((من أكل من هذه البقلة فلا يقربن مسجدنا)) رواه الإمام زيد بن علي إ في (المجموع).

ويشكل على هذا قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢] فظاهره: أنهما أكلا من الشجرة بسبب رغبتهما فيها لتحصل لهما المنفعة الموهومة، فكيف صح أن تقول: لم يكونا متعمدين أكلها؟

والجواب: لا إشكال أن الرغبة فيها هي الباعث، ولكن يمكن أنهما وإن رغبا فيها كانا كارهين لتعمد المعصية، فلم تبعثهما الرغبة على تعمد أكلها على أنها هي الشجرة المنهي عنها، ولكن بعثتهما الرغبة على ترك الوقوف عند الشبهة فقد كان يمكنهما العدول عن الشجرة التي فيها شبهة إلى غيرها

من المأكولات الكثيرة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فلا ضرورة للأكل من هذه الشجرة المشتبهة، ولكنهما كانا لشدة رغبتهما في فائدة الشجرة الفائدة الموهومة المزعومة يرغبان في أن يأكلاها بدون أن يتعمدا أكلها لتحصل فائدتها من دون تعمد المعصية، وهذا شأن بعض الناس إذا رغبوا في الشيء طلبوا توجيهاً يخلص عن المعصية.

فمن هنا أكلا منها راغبين في أن تكون في الواقع الشجرة المنهي عنها مستأنسين بأنهما لا يعلمان أنها هي الشجرة المنهي عنها، ناسيين أن الله قد حذرهما من الشيطان حيث أعلمهما أنه لهما عدو مبين، فكان الباعث على أكلها هو الرغبة فيها، مع أنهما غير متعمدين لها من حيث هي الشجرة المنهي عنها، فظهر: أنه لا تلازم بين كون السبب الرغبة وكونهما متعمدين للمعصية، فمن هنا انزلقا في المعصية وكانت تلك زلة أقيما منها وعثرة أقيلا منها.

والشيطان هو الذي شأنه الإغواء عن طريق الحق بالتغرير، ألا ترى أن إبليس عبر عنه باسمه الأول حين امتنع من السجود لآدم ولما احتال لإغواء آدم وحواء صار اسمه الشيطان وعبر عنه بهذا الاسم.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من رغد العيش بغروره ﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وزوجه ولإبليس: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ أما آدم وزوجه المخلوقة منه، فهبوطهما من جنتهما، وأما إبليس فهبوطه من السماء أو من جنة آدم؛ إذ لا يبعد أنه لما طرد من السماء صار إلى آدم وحواء ليغويهما، وهذا هو الراجح، ولعلها لم تكن في حقه رفاهية ورغداً؛ لأن ما فيها معدّ للإنسان خاصة؛ ولأن إبليس مستغرق بالحسد والحقد، فليس له في جنة آدم راحة.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ يبيّن أن عداوة الشيطان لهما باقية لم تنته عند إغوائه لهما وإخراجهما من الجنة، وأما عداوتهما له فبالدعاء عليه واللعنة له ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي إلى وقت تستقرون فيها وتتمتعون بما فيها من المنافع القصيرة الأمد من حيث أنكم تنتقلون من الأرض إلى موضع الجزاء في الآخرة النار لإبليس والجنة لآدم وزوجه حيث البقاء الدائم الذي بالنسبة إليه اعتبرت مدة نعم الأرض قصيرة، فسميت متاعاً، والحين وقت الموت.

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ هذه الكلمات مبهمة تلقاها آدم، أي قبلها أو تلقنها، فكانت سبباً لأن يتوب عليه، ولعلها دعوته إلى التوبة، والإيحاء أن يقولا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ الآية [الأعراف:٢٣] أو إعلامه أن قد عصى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢].

قال الشرفي في (المصابيح): ((واختلفوا في تلك الكلمات ما هي؟ فقال الهادي × : والصحيح عندنا: أن الكلمات هو ما كان الله قد أعلمه بخلق من سيخلقه من ذرّيّة آدم ونسله، أنه سيكون منهم مطيع ويكون عاص باختيارهم، وأنه سبحانه يقبل التوبة من تائبهم إذا تاب وأخلص التوبة وراجع..)) إلى آخره.

قال الشرفي: ((وفي تفسير هذه الكلمات يقول القاسم بن إبراهيم إ : هن كلمات الاستغفار والتوبة والإنابة، ذكرهن آدم بعد المعصية، فطفى بهنّ

ما وجب عليه من غضب ربّه، فلما أن تلكم بكلمات التوبة وأظهرهنّ صرف الله عنه العقاب وصار حكمه عند الله حكم من أناب وتاب)) انتهى.

قلت: لا مانع من هذا التفسير على أن يكون الله تعالى أمره أن يقول كلمات التوبة، فتلقاها من ربه وقالها، فكانت الكلمات من الله حين أمره بها، ومن آدم حين قبلها وتكلم بها، فكان (تلقَّى) هنا مثل (تلقن).

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته، ولم تذكر حواء هنا؛ لأنها تابعة له، وقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ إلى آخر الآية [الأعراف:٢٣] والأرجح عندي الموافق لما في (سورة الأعراف) أن الكلمات قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ..﴾ إلى آخر الآية [آية:٢٢].

وأن تلقيها هو التوبة بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [آية:٢٣] فهنا أجمل الكلمات وهناك بينها والقصة واحدة، والسياق واحد، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ووجه كون قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ [الأعراف:٢٣] إلى آخره تلقياً للكلمات، أن الكلمات موعظة باعثة على التوبة، فكانت التوبة تلقياً لها وقبولاً يؤكد كونها قبولاً، التطابق بين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣].

وقد *يقال*: كيف قدم هنا الأمر بالهبوط على التوبة، وفي (سورة الأعراف) قدم التوبة؟

والجواب: أنه هنا ذكر الأمر بالهبوط قبل التوبة، وذكره بعد ذكر التوبة فلا تعارض، وإنما هنا زيادة ذكر الأمر بالهبوط قبل ذكر التوبة، ولعله تكرر هنا توطئة لما رتب عليه في الآيتين وكان الأمر متكرراً في الواقع، وأجمله في (سورة الأعراف) وبنى عليه ما في الآيتين.

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ

ومنشأ الإشكال توهم أن قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ [آية:٢٤] متصل بقوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ إلى آخر الآية [آية:٢٣] بحيث يتوهم أن الأمر بالهبوط مبني على التوبة؟

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ [الأعراف:٢٤] متصل بالقصة كلها جملة، وهي مبني على أكلهما من الشجرة وإخراجهما من الجنة لا على التوبة، فلا يدل ذلك على أنه لم يتكرر، وإنما أجمل الحكاية في (سورة الأعراف) وفصلها في (سورة البقرة) كما فصل في (سورة الأعراف) ما أجمل هنا في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ..﴾ الآية.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا﴾ ظاهره الأمر لآدم وزوجه والشيطان، وقوله: ﴿مِنۡهَا﴾ ظاهر الضمير للجنة، وهذا يصحح ما رجحت من أن إبليس لما طرد من السماء صار إلى جنة آدم ليغويه ويوقعه في المعصية.

﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ إرشاد إلى طريق الحق بكتاب أو وحي إلى نبي ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ والمراد في الآخرة يأمنون عذاب الآخرة وأهوالها، كذا قيل.

والأرجح: أن المعنى لا يخاف عليهم، والنفي هذا كقوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ليس من شأنهم أن يخاف عليهم غيرهم أو لأنه الواقع لأن من عرفهم لا يخاف عليهم العذاب، ولا يحزنون كما يحزن أعداء الله في الآخرة؛ لأنه قابل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم الجاحدون لشيء مما يجب الإيمان به.

والمكذبون بآيات الله: هم الذين يقولون: ليست آيات توجب الإيمان بما تدل عليه، والآية هي العلامة الدالة ومنها آيات القرآن؛ لأنها تدل على الحق، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر الآية، فتأملها في مواردها نحو: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف:٧٣].

فالذين كفروا وكذبوا بآيات الله قد جمعوا بين جريمتين كبيرتين: الكفر بالله أو برسوله أو باليوم الآخر أو بالكتاب أو بالملائكة أو بالنبيين؛ لأن الكفر أساس الباطل وبعضه يدعو إلى بعض، فالكافر باليوم الآخر يتجرأ على الظلم وغيره من القبائح؛ لأنه لا يخاف العقاب ويفقد الرغبة في فعل الخير؛ لأنه لا يرجو الثواب، كما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣] ولا يصلح المجتمع الإنساني إلاَّ بالرهبة من العقاب والرغبة في الثواب.

والجريمة الثانية: التكذيب بآيات الله يلجئون إليه تبريراً لكفرهم ومحاربة للحق وصداً للناس عن الإيمان، والجمع بين الجريمتين شأن الأمم التي كذبت الرسل، وهي جمهور العالم الإنساني، وهو شأن المكذبين بالقرآن وبالرسول محمد ص، فهو أمر توارثته جماهير الأمم من عهد نوح × أو من قبله إلى هذا الزمان على أنه أمر عظيم الخطر، فكان التقدم بذكره والتحذير منه من أول تكليف البشر بالشرائع هو الذي ينبغي إكمالاً للحجة على الأمم. وأصحاب النار هم سكانها الملازمون لها، وفي قصة آدم عبرة ولا سيما لأهل العلم، فقد ترادفت عليه النعم حيث عُلّم الأسماء وجُعل خليفة في الأرض وأمِر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلاَّ إبليس.

ومع ذلك تتابع عليه الوعيد: الأول: إذا أكل من الشجرة صار من الظالمين، وذلك يستلزم أنه يكون جزاؤه كجزاء سائر الظالمين إذا لم يتب، الوعيد الثاني: إذا أكل من الشجرة شقي بإخراجه من الجنة وجعله في دار العناء يحرث ويحصد ويغزل وينسج له ثوباً وغير ذلك، ويعرض له في بعض الحالات الجوع أو التعب أو الحر أو البرد.

فإن قيل: إن الشقاء والظلم بمعنى واحد؟

قلنا: لا موجب لذلك، ولا دليل عليه إلاَّ أن يقال: إخراجه من الجنة وما لحقه بعد ذلك من العناء لا يسمى شقاء؛ لأنه صحيح البدن قوي معدّ للعمل بفطرته، فلا يكون العمل شقاء، وخروجه من الجنة المفوّت للرفاهيّة فيها إلى عيشه في دار العمل لا يبلغ أن يسمى شقاء، وإن كان فيه مشقّة؛ لأنه لم يثبت أنه كان في الجنة التي فيها ((ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)).

ألا ترى أنه لم يذكر في جنة آدم أن فيها ما تشتهي نفسه أو ما يشاء، وإنما وصفت بأنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وهكذا حالة كثير من الناس في أرض العمل، فليس أسف الخروج منها شديداً بحيث يعد شقاء؛ لأنه لا يبلغ أسف الطفل إذا فطم، بل ولا قريباً منه بالنظر إلى أن آدم يعرف من نفسه الكفاءة للعيش في دار العمل بسهولة وهناء، لكن يقال: لا بد أن يحصل له في أول الأمر شدة وعسر حتى تحصل الثمرة والثياب والفراش والمسكن. والشقاء في اللغة: الشدة والعسر.

فإن قيل: إذا لم يكونا واحداً، فكيف قال في (سورة البقرة): ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وفي (سورة طه): ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:١١٧]؟

عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا

قلنا: هذه نفسها دليل لنا على أن الشقاء غير الظلم؛ لأن الظلم رتب الحكم به على الأكل من الشجرة والشقاء رتب على الخروج من الجنة، وهو متأخر عن الأكل من الشجرة، فقد كان من الظالمين قبل أن يشقى، وعادة القرآن أن يذكر في موضع شيئاً وفي موضع آخر شيئاً آخر من القصة الواحدة، انظر قصة آدم في (سورة البقرة) و(سورة الأعراف) ففي سورة البقرة ذكر الهبوط مرتين، وفي (سورة الأعراف) ذكر قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا..﴾ الآية [آية:٢٢] وكذلك غيرها من القصص في القرآن الكريم.

الوعيد الثالث: في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وفي (قصة آدم ×) عبرة من حيث أن المعصية كانت سبباً لزوال النعمة، وفي ذلك تحذير لذريته من زوال النعم بسبب المعاصي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] وعبرة قطع الطمع في دخول جنة الخلد مع الإصرار على المعاصي؛ لأن المعصية سببت الخروج من هذه الجنة، وهي دون تلك، فكيف يمكن دخول جنة الخلد التي لهم فيها ما يشاؤون مع العصيان، وفي نهج البلاغة نحو هذا عن أمير المؤمنين × ، وعبرة أن التوبة لم تنفع لإرجاع النعمة الفائتة بسبب المعصية، وإن سببت للخروج من الظلم والسلامة من العقاب؛ لأن توبة آدم × لم تنفع لإرجاعه في الجنة.

۝ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إسرائيل: هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليهم وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.

قَلِيلاً وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

وبنو إسرائيل: هم أهل الكتابين: (التوراة) و(الإنجيل) وقد آمن بعضهم بنبينا محمد ص وبعضهم كفروا، فكبرت معصيتهم بكونهم أهل الكتاب يعرفون رسول الله ص كما يعرفون أبناءهم، وكونهم يفسدون من يقتدي بهم فجاءت فيهم هذه الآيات موعظة لهم، واحتجاجاً عليهم، وإنذاراً وبياناً لفسادهم وطغيانهم، وتمردهم حسداً وحبّاً للدنيا، لئلا يغتر بهم أحد ولتعظم الحجة عليهم يوم القيامة إن لم يقبلوا، وقد أجمل النعمة هنا وفصل فيما بعد بتعداد نعم كثيرة.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ومن عهد الله الذي يجب عليهم الوفاء به ما ذكره سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧] وأما العهد العام فهو على قبول التوراة وذكر ما فيها من الإنذار والتبشير وغير ذلك، ويأتي ذكر مواثيق أخذت عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ..﴾ الآية، وقد ذكر عهده وعهدهم في (سورة المائدة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي..﴾ الآية [آية:١٢].

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ الرهبة: الخوف، قال في (الكشاف): ((وهو من قولك: زيداً رهبته، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾)) انتهى. قلت: فالمعنى: أمرهم أن يخافوا الله، ولا يخافوا أحداً إلاَّ الله.

﴿٤١﴾ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو القرآن الكريم، وفي كونه مصدقاً لما معهم قطع لعلّتهم؛ لأن الإيمان به لا ينافي الإيمان بما معهم.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ لأنهم بسبب الكتاب الذي معهم يقتدي بهم بعض الناس في الكفر، فنُهوا أن يكونوا أول هذا الفريق، أي قدوته ومتبوعه؛ لأن ذلك جريمتان؛ جريمة كفرهم، وجريمة صد الناس عن دين الله، كما قال تعالى في (سورة النحل): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [آية:٨٨].

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ تنبيه على وجه وجوب الإيمان به، وهو أن الله أنزله فهو حق وصدق وإنزاله حق، كما قال سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] وكما قال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ لا تتبدلوا بها متاع الدنيا فإنه قليل بالنسبة للثمن المدفوع فيه، ولأنه يفنى عن قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ يعم (التوراة) و(القرآن) لأنهم إذا كفروا فقد تركوا التوراة والقرآن، لأنهما يدعوان إلى الإيمان بالله ورسله.

﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أمروا أن يتقوا الله وحده؛ لأن بطشه شديد ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦] فالتقوى تنجي من عذابه وما لحقهم من ضر مع التقوى، فهو خير لهم حتى لو قتلوا في سبيل الله فهو خير لهم، وإذا فاتتهم التقوى فاتهم كل خير في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين × : ((لا يرجونَّ أحدكم إلاَّ ربه، ولا يخافنّ إلاَّ ذنبه)).

(٤٢) ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ليقبل الباطل بسبب اختلاطه بالحق، حكى الرضي في (نهج البلاغة) عن علي × من كلام له × : ((فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخفَ على المرتادين،

ولو أنّ الحق خلصَ من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيُمْزَجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)) انتهى.

﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق الذي أخذ عليكم الميثاق ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ عطف على ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ لأنه لم يتخلل إلاَّ ما يجري مجرى الحث على الإيمان، فالمراد: آمنوا، وأقيموا الصلاة.. إلخ، والإيمان بالقرآن يستلزم العمل بشرائع الدين كلها، ولكن خصت هذه لعظمتها في الدين وفي ذكرها مع الدعوة إلى الإيمان إشارة أن الغرض الدعوة إلى عبادة الله، كقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ..﴾ الآية [آل عمران:٦٤].

و(إقامة الصلاة) قد مر تفسيرها، وأما إيتاء الزكاة فهو تسليمها من دون مطالبة من الفقير أو تهديد من الإمام، بل إذا حضر المصدق سلموها إليه لمجرد معرفة أنه مصدق، ولعل هذا هو السبب في عبارة ﴿ءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في أكثر مواضعها في القرآن دون زكوا، ليفيد حسن الأداء لها.

وأما تخصيص (الركوع) بالذكر، مع أنه جزء من الصلاة فقيل فيه ـ على ما حكاه الشرفي في (المصابيح)ـ: ((اقتضى ذكر الركوع هاهنا أن اليهود لم يكن في صلاتهم ركوع، فأُمروا بالركوع)) انتهى.

قلت: إن صح هذا فهو الظاهر، وإلا فقد خص الركوع لحكمة لا نعلمها، ولا يبعد أنه توطئه لقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ويكون تخصيصه إشارة إلى إدراك الجماعة بإدراك الركوع مع الراكعين، وأن ذلك لا ينافي إقامة الصلاة حيث استلزم ترك القراءة في الركعة الأولى.

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال × ـ يعني إمام زمانه القاسم بن محمد × ـ: تدل على وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعلى وجوب صلاة الجماعة، والألف واللام في الصلاة والزكاة للعهد لتقدم معرفة الصلاة كما في الأخبار الواردة في فضائل علي × ، وأنه صلى مع النبي ص قبل الناس بسبع سنين، والله أعلم)) انتهى.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار عليهم والتوبيخ، وهو منصبٌّ إلى نسيانهم أنفسهم، والبرّ ضد الفجور، وهو الإحسان وفعل الخير، ونسيان أنفسهم أنهم يغفلون عن أمرها بالبر؛ لأن أذهانهم موجّهة إلى الأغراض الدنيوية وما يدعو إليه الحسد والكبر من الكيد للمسلمين والطعن في الدين والتكذيب بآيات الله، فهم بمعزل عن أن يأمروا أنفسهم بالبر، كأنهم ناسون له أو هم ناسون له حقيقة، والتوبيخ لهم على الجمع بين الأمرين لا على أمر الناس بالبر، ونظيره قوله تعالى:﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١] فليس العيب الدعاء العريض، إنما التبكيت على الجمع بينه وبين الإعراض والنأي بالجانب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣] فليس التبكيت على الدعاء لله خالصاً، بل على إضافة البغي إليه.

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا

وتحقيقه: أن الإنسان إذا أقر بالحق في حالة كان حجة عليه في حال عناده، فإذا بُكِّتَ على عناده وقد أقر بالحق فالمقصود الاحتجاج عليه بإقراره، ونظيره لو قلت لرجل: كيف تصوم ولا تصلي؟

فأنت لا تعيب عليه الصيام وإنما تعيب عليه ترك الصلاة.

ومن الغلط الفاحش توهم أن الدعاء الخالص في حال الشدة معيب أو أمر الناس بالبر، إنما المعيب الشر وإضافته إلى الخير حجة عليه، وقد وجدت كتاباً لبعض المفسدين يدعو إلى ترك الدين كله إذا كان العبد لا يقوم به كله، نعم يمكن أن يكون أمرهم للناس بالبر لم يكن إلاَّ رياء وسمعة، وتقوية لمركزهم في عنادهم، وعلى هذا يكون منكراً عليهم نفس أمرهم للناس بالبر، وعلى هذا لا تكون هذه الآيات نظير الآيات المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ احتجاج عليهم بما يتلونه في التوراة من الوعد والوعيد والميثاق على الإيمان برسل الله وغير ذلك مما يدعوهم إلى أن يأمروا أنفسهم بالبر أو إلى أن يكونوا أبراراً.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبكيت واحتجاج عليهم بالعقول؛ لأن من شأن العاقل أن ينصح لنفسه ويتدبر عواقب الأمور فيسعى لنفسه في عاقبة حسنة أي أن العقل يدعو إلى ذلك، وإذا كان العبد يرشد غيره ويغوي نفسه فكأنه لا يعقل.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ على القيام بما أمرتم به من الإيمان بالكتاب وما إليه ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ ففيهما عون، ولعل العون في الصبر من حيث أن الصابر يتعود تحمل الشاق على النفس حتى تألفه نفسه، ومن حيث

أن الله معه يعينه ويقوي إرادته، وأما الصلاة فلأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فبذلك تنهى عن الحسد والكبر ويسهل الإيمان.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة ثقيلة على أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] فالإيمان بالقرآن وما يلزم معه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الشرائع الناسخة لدينهم الذي نشئوا عليه وتعصبوا له، ومصيرهم تابعين لمحمد ص، وهو من ولد إسماعيل، وقد كانت النبوءة والكتاب في بني إسرائيل، وأسباب غير ذلك تثقل من أجلها إجابتهم إلى ما دعاهم إليه من الإيمان بما أنزل على رسوله ص وتشغلهم عن ذلك بالكبر والحسد.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الذين ذلّت قلوبهم لله، فلا يريدون إلاَّ ما يرضيه، ولا مجال في قلوبهم للكبر ولا للحسد ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ الظن هنا، قيل: بمعنى العلم، وهذا بعيد؛ لأن السياق يستدعي تحقيق إيمانهم الصحيح الذي يكون عن علم اليقين، فالتعبير بما يفيد ذلك هو المناسب للبلاغة المطابق لمقتضى الحال.

وقيل: المراد أنه يكفي الظن في بعثهم على الطاعة والتقوى لعظم العقاب المحذور، وهذا لا يخلص من المشكلة؛ لأنهم قد وصفوا بالظن، فدل ذلك على أنه واقع منهم لا مجرد أنه مفروض مقدّر، والذي يصح مع إبقاء الكلمة على حقيقتها بدون معارضة للمقصود الذي هو المدح أن معنى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ وقوله في (قصة أصحاب طالوت): ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ﴾ مصيرهم إليه في القريب العاجل.

وهذا بواسطة استعمال (اسم الفاعل) في هذا المعنى، إما بطريقة أنه (اسم الفاعل) المستعمل للحال، وجعل القريب العاجل كأنه في الحال، فكأنه قال: ملاقو الله في الحال، وإما لقرينة السياق، فكأنه قال: ملاقو الله في القريب العاجل، وذلك أن من كان أمله في الحياة قصيراً استعد للآخرة ولم يبال بأغراض الدنيا، ولم يحرص على ترك الجهاد، بل يحرص على الشهادة.

ونظير الآيتين في استعمال (اسم الفاعل) للقريب العاجل قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] فلا يبعد أن قد أيقنوا بدخولهم النار عند حضور الموت، وفي البرزخ وعند خروجهم من القبور، أو على الأقل ظنوا، فظنهم عند رؤية النار أنهم مواقعوها ظن الوقوع فيها في القريب العاجل، لا مجرد ظنهم أنهم سيقعون فيها، ولو تأخر وقوعهم فيها.

ومن استعمال (اسم الفاعل) للقريب العاجل، ما رواه الإمام أبو طالب × في (الأمالي) في قصة الإمام علي × لما ضربه ابن ملجم ـ لعنه الله ـ قال: ((وروي عن عمرو بن ذي مرّ، قال: قلت له يا أمير المؤمنين إنه خدش وليس بشيء؟

فقال × : (إني مفارقكم إني مفارقكم) ودعا بصحيفة ودواة وكتب وصيته)) انتهى، فقوله × : (إني مفارقكم) معناه: في القريب العاجل.

ويظهر: أن منه: قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٣٤].

وقول امرئُ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقد ظهر: أن (اسم الفاعل) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ من هذا القبيل، يؤكد ذلك قوله تعالى في (أصحاب طالوت): ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ فانظر كيف كان قومه ثلاثة أقسام: قسم شربوا من النهر وهم الأكثر، وقسم بخلافهم، وقد ظنوا أنهم لا يطيقون قتال جالوت لقلة الباقين معه وكثرة قوم جالوت، وقسم ردوا عليهم قولهم: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا﴾ بقولهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ..﴾ إلخ، وهؤلاء هم الصفوة من المؤمنين.

فكيف يصلح أن ينسب إليهم ظن البعث، كما قال الكفار: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]؟ وكيف يصلح استعمال الظن بمعنى العلم وهم بيقينهم وإيمانهم أقوى من غيرهم؟ والمناسب أن يوصفوا بقوة الإيمان لا بعبارة توهم ضعف يقينهم، وكيف يؤتى بعبارة لا تؤتي سبب إقدامهم وشجاعتهم وتشجيعهم لأصحابهم؟ إن هذا لبعيد!!

أما إذا قلنا: المراد أنهم يظنون قرب لقائهم لله وقصر مدة بقائهم في الحياة الدنيا، فالمهمّ عندهم الاستعداد للقاء الله، وأحسن الاستعداد الجهاد في سبيل الله والتعرض للشهادة في سبيل الله، ولذلك فهم مشتاقون إلى الإقدام ومشجعون لأصحابهم ليتمّ الغرض المطلوب حتى يفوزوا بالنصر أو الشهادة، فهذا المعنى هو المناسب للسياق ـ وبالله التوفيق.

﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ كما خلقهم في الدنيا ورزقهم وأمرهم ونهاهم يرجعون إليه ليجزيهم بما كانوا يكسبون، وليس مع رجوعهم إليه رجوع إلى غيره من شفيع أو ناصر أو معين، بل يرجعون إليه وحده ليحكم فيهم ما يريد.

فهم يخشونه ويسهل عليهم امتثال أمره بالإيمان بالكتاب، وبكل ما أمـروا به؛ لأنهم موقنون به وهـو في نظـرهم قريـب جـدّاً لقصـر آمـالهم في الحيـاة واعتبارهم ما بعد المـوت أوّل الرجـوع إلى الله بـأرواحهم، ومـا يكـون مـن مجازاتها في حياة البرزخ، أو لأنهم يعتبرون توفّيَه لأنفسهم أول الرجوع إليه، وفي شعر الناصر الأطروش الحَسن بن علي × ـ يعني نفسه ـ:

أنــاف على السبعين ذا العـامُ رابع ولا بدّ لي أنــي إلى اللــه راجــع

وكذلك لقاء الله. قال في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة:٧٧]: ((والمعنـى: فخـذلهم الله حتـى نـافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم، فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا)) انتهى.

وعن أمير المؤمنين × لما كلموه في تقليله للفطور، لا يزيد على ثـلاث لقم، فيقول الحسن × : يا أبـتِ لـو زدت؟ فيقـول: ((أحـب أن ألقـى الله خميصاً)) انتهى، رواه الموفق بالله × في كتاب (الاعتبار وسـلوة العـارفين) [ص١٩٢- مخطوط].

وفي كلام الحسين × : ((ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتنـاهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله ـ عزَّ وجل ـ)) رواه المرشد بالله في (الأمـالي) [ج١ص١٦١].

(٤٧) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إعادة النداء لهم كإعادة التنبيه للنائم إذا لم ينتبه لأول نداء وإعادة التذكير بالنعمة تنبيهٌ لهم من غفلتهم عن النعمة، وبعثٌ لهم على الشكر وتفضيلهم على العالمين تفضيلهم في النعم؛ لأنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل:٧١] وقوله تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠].

تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَـٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ

وهذا واضح من عطف ﴿أَنِّى فَضَّلۡتُكُمۡ﴾ على ﴿نِعۡمَتِىَ﴾ وفتح الهمزة؛ لأن معناه: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿أَنِّى فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ ومعناه: التذكير بالنعمة، فالتفضيل هو التفضيل في النعمة.

وقوله تعالى: ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ معناه: في الماضي، فكانوا أفضل العالمين في النعم، ولا يلزم بقاء الفضل واستمراره؛ لأن فضلتكم فعل ماض يصدق بتفضيلهم على العالمين الأولين؛ لأنهم إذا فضلوا على الناس كلهم الموجودين في الزمان الأول فقد فضلوا على العالمين؛ لأن العالمين اسم لمن قد وجد ولا يشمل المعدوم الذي هو غير موجود في ذلك الزمان.

ومتى *قيل*: فالتفضيل في النعمة نعمة، فكيف عطف على ﴿نِعۡمَتِىَ﴾؟

فالجواب: أن ﴿نِعۡمَتِىَ﴾ يحتمل: أن المراد به أنه آتاهم الكتاب، كقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فالكتاب الجامع للآيات الكثيرة نعمة كبرى، فالتذكير بالتوراة من حيث هي نعمة، ومن حيث هي حجة عليهم، وعلى هذا فلا إشكال في العطف، ويحتمل أن: ﴿نِعۡمَتِىَ﴾ عام لكل نعمة، فعطف التفضيل عليها من عطف الخاص على العام، كعطف جبريل على الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِلَ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا﴾ يعني اتقوا شر يوم هذه صفته، فهو يوم لا ينجي منه إلاَّ اتقاءه في الدنيا ﴿لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا﴾ لا تؤدي عنها حقاً ولا تقضي عنها ديناً ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ لتنقذها من شره لو جاءت بشفاعة شافع.

ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ فدية تعدلها وتقوم مقامها في القَدْر ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران:٩١] ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم شملهم عموم النكرة في سياق النفي، وهم نفوس كثيرة ولا ينصرهم أحد لدفع شر ذلك اليوم، وفي الآية دلالة على أنها لا تنفع الشفاعة للمجرمين كلهم، ويدخل في ذلك أهل الكبائر المنتسبين إلى الإسلام، وليس ذلك حطاً من مرتبة الشافع؛ لأنه يكون على وجه يحصل فيه التكريم للشافع والإهانة للمشفوع له.

كما روي عنه ص أنه قال: ((إني فرطكم على الحوض، وسيُجاء برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) أو كما قال، فقوله: ((أصحابي أصحابي)) شفاعة ليردوا إليه ويسقيهم من الحوض، ولكنها لم تنفعهم، بل كان الجواب ذمهم وبيان استحقاقهم للعذاب.

﴿٤٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ لا يبعد حمل كلمة ﴿ءَالِ﴾ هنا على قرابة فرعون، أو على فرعون وقرابته، على معنى أنهم هم الذين يظلمون بني إسرائيل ويأمرون الأقباط بظلمهم.

﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ يكلفونكم سوء العذاب يكرهونكم عليه من سامه خسفاً إذا حمله على ما هو ذل، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً   أبينا أن نقر الخسف فينا

قال في (الكشاف): ((وأصله من سام السلعة إذا طلبها)) انتهى.

يعني: إذا طلب بيعها منه، وقيل: من سام الإبل: إذا رعاها وهو بعيد غير مناسب للمعنى، والظاهر: في مضارعه يسيمون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:١٠] لأن السائمة: هي الإبل الراعية، والسوم: الرعي، وإن صح نسبته إلى صاحب الإبل تجوزاً، وقوله تعالى:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ووجه السوم فيه أنهم جعلوا ذبح الأبناء واستحياء النساء عادة مستمرة، فإذا ولد مولود إسرائيلي فهم يتوقعون ذبحه، فكانت هذه العادة سوماً لهم سوء العذاب من أجل أنهم لا يزالون يتوقعون قتل الأولاد في المستقبل، وهذا يناسب ذكر الإنجاء منهم؛ لأنه تخليص من الشر المستقبل لا مما قد وقع، وهذا المذكور ليس كل سومهم ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ولكنه أعظمه وأشده عليهم، فذكر بعينه، وهم يعرفون سومهم سوء العذاب غير ذلك.

وفي (سورة إبراهيم): ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ﴾ [آية:٦] بالعطف، فعُطف عطف الخاص على العام وسوء العذاب أقبحه.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ﴾ نعمة من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧] ولعل (بني إسرائيل) كانوا من العدد بحيث يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، أو بحيث يتجنب الظالم ظلمهم لقوتهم، ولكنهم تواكلوا وتخاذلوا وغلب عليهم اليأس، وعدمت ثقة بعضهم ببعض، فلم يجتمعوا بل تفرقوا، وتركوا محاولة الاجتماع والتوحد الذي تكون القوة معه، إذا كان مع صدق الديانة، والتوكل على الله، فلذلك استحقوا أن يتركوا وشأنهم حتى استضعفهم فرعون وصار يعاملهم المعاملة الجائرة، بسوء ما سبق منهم من التواكل والتخاذل وقلة المبالاة بعواقب ذلك، فمن هنا كان إنجاؤهم بعد ذلك بلاءً من ربهم عظيماً ـ والله أعلم.

تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿٥٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ إذ فرقنا لكم البحر، حين ضربه موسى بعصاه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] ولما كان فرق البحر من أجلهم ليمرُّوا طريقهم بين الفرقين، كانوا كأنهم آلة لفرق البحر انفلق بمرورهم فيه، فهذه نعمة عليهم أن فرق لهم البحر وهي من الخوارق العظام، وجعل لهم فيه طريقاً سلكوه وحولهم من البحر كل فرق كالطود العظيم لا يسيل عليهم حتى خرجوا من البحر سالمين من الغرق وسالمين من إدراك فرعون وقومه.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ في مروركم فيه من الغرق ومن فرعون ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وهذه نعمة أخرى إهلاك عدوهم وهم ينظرون؛ لأنها بذلك تحققت لهم نجاتهم من آل فرعون، وحصل لهم شفاء لما في صدورهم من الغيظ، أو خفف عنهم بمشاهدتهم هلاك عدوهم في تلك الحال، وبتلك الصورة التي اقترنت فيها نجاتهم بهلاك عدوهم كلهم في وقت واحد برجوع البحر عليهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يحضر فيها في جانب الطور الأيمن يسمع فيها كلام ربه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً، وكان ذلك منكم من بعد موسى الذي هو رسول الله إليكم، والذي قد علمكم التوحيد، وأنكر عليكم ابتغاء إله غير الله فعظمت الجريمة بسرعة انقلابهم عن دينه واستبدال هداه لهم بالضلالة، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ معناه: أنهم ظالمون بذلك؛ لأن الشرك ظلم عظيم.

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ

﴿٥٢﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أما العفو فحين تابوا، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى أن العفو عن مثل ذلك في العادة بعيد، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:٨٦] فلما أن هداهم الله للتوبة ببركة موسى وعفا عنهم حين تابوا كانت تلك نعمة عظيمة يجب عليهم شكرها، ولما كان هذا تعريضاً لهم على الشكر شبه بالإنعام رجاء الشكر، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ الفرقان بين الحق والباطل، بما أوحى إليه ربه من ذلك مع التوراة وقبلها، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي بذلك، ومعنى (لعل) مثله في ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ لأنكم تعرضتم بذلك للعذاب الدائم الشديد وصيرتم أنفسكم مستحقين له ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي خلقكم وجعل صوركم متقنة مختلفة يتميز بعضها من بعض، فأنتم عباده يستحق عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به، ويستحق عليكم أن تتوبوا إليه من الشرك.

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ وسلموها لبارئها تحقيقاً للتوبة بامتثال أمر الله في أنفسكم التي هي أعز الأشياء عليكم، واعترافاً بأن أنفسكم له يحكم فيها ما يريد.

ولعلهم لما كانوا قد أشربوا في قلوبهم العجل كانت توبتهم لا تتم إلاَّ بهذه التوبة أو بتسليم أنفسهم لله تعالى ليذهب رجس العجل وأثر عبادته عن قلوبهم.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ لأن الشهادة والجنة خير من البقاء على الذنب حتى تموتوا ثم تصيروا إلى النار وقوله عند بارئكم؛ لأنه هو الذي يثيبهم عليه ويرضى عنهم.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بإسقاط هذا التكليف الشاق، روي أنهم حين عزموا على هذا الأمر اجتمعوا وعصبوا على أعينهم وتضاربوا بالسيوف أو نحو هذا فنزلت توبتهم أي قبول توبتهم، وهي بالتسليم لأمر الله، وعفى عنهم ربهم بإسقاط هذا التكليف الشاق، فكانت تلك شهادة للماضين وتوبة للباقين.

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:٢٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة:١٣] أي رجع لكم بالرحمة والتخفيف عنكم بنسخ ذلك التكليف.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يرجع على عباده بألطافة، ويرحمهم حين يتعرضون لرحمته، وحين لا يستوجبون التشديد في حكمته، هذا وإسقاط الأمر بالقتل بالنسبة للباقين، فأما الماضين فقد مضوا على الحكم الأول شهداء، والتمنن بالعفو على الباقين، ويظهر: أنهم الأكثر إن لم يكونوا هم الكل ممن تاب، وما يروى من تكثير القتلى، فلعله من رواية اليهود ليفتخروا به، وليس في هذه الآية وأمثالها من القرآن ما يدل على وقوع قتل لا كثير ولا قليل، بل الظاهر أنه لم يقع؛ لأنه تمنن عليهم، وله الحمد والشكر، فعم بني إسرائيل.

جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ

فظهر منه: أن العفو نزل قبل أن يقع قتل بموجب الحكم الأول، ولولا ذلك لما كان العفو عاماً لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ولَمَا مَنَّه على خلائفهم المخاطبين بقوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واعتماد القرآن الذي لا ريب فيه أولى من اعتماد الروايات التي يكثر فيها الكذب، وخصوصاً فيما يتعلق بـ(بني إسرائيل).

﴿٥٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ ﴿جَهۡرَةً﴾ عياناً، أرادوا أن يتجلى لهم فيروه بأعينهم، ولعل رغبتهم هذه هي أخت رغبتهم في أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، أي أنهم يريدون إلهاً يشاهدونه كما للمشركين آلهة يشاهدونها بزعمهم، فطلبوا أن يروا الله سبحانه ليكونوا قد حصلوا على ضالتهم المنشودة، ولشدة حرصهم على ذلك أكّدوا هذا الطلب بقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ وصيروا ما رأوا من الآيات والنعم كأن لم يكن.

﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ الظاهر: في معنى ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ هنا أنها المهلكة، وأنها رجفة الطور حين اندك، ففي (سورة الأعراف): ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [آية:١٥٥] وفيها: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [آية:١٤٣] وعلى هذا فمعنى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ تنظرون مكانكم يرتجف بكم، إما الجبل نفسه أو ما حوله عند ارتجافه حين اندك.

﴿٥٦﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ لا مانع من حمله على الحقيقة كموت الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، والله يحيي ويميت، ويؤكد ذلك السياق.

ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ

﴿٥٧﴾ ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ﴿ظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ جعلناه عليكم ظللاً تظلكم من الشمس، قيل: ذلك في التيه، فسخّر الله لهم السحاب يسير سيرهم. وأما ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ ففي مصابيح (الشرفي): ((قال ـ أي المرتضى × ـ: ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ فهو شيء كان يقع على الشجر يضرب إلى الخضرة حلو كانوا يأكلونه، والسلوى: فهو طير أصغر من الحمام كانوا ـ أيضاً ـ يأكلونه في أيام تيههم، وذلك أن الله لما أمرهم بدخول القرية فكان من كلامهم ما قد سمعت مما قصّه الله في كتابه، فحرم الله عليهم مصر أربعين سنة، فكانوا يتيهون في مواضع حذاها هو الآن معروف، ولا يهتدون لها، فأنزل الله سبحانه المن والسلوى، وجعله لهم رزقاً يعيشون به إذ الأجساد لا تقوم إلاَّ بالغذاء)) انتهى.

قوله: ((مما قصه الله في كتابه)) يعني في (سورة المائدة) [آيتي: ٢٢، ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي بكفرهم للنعم كما وقع منهم من الفسق المذكور في تلك القصة.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ المعروفة عندهم، وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ يظهر منه: أنهم كانوا قد قربوا منها ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ الذي تدخلون منه ﴿سُجَّدٗا﴾ خاضعين لله متذللين بلا عجب ولا كبر، سليمين من سكرة النصر.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٥٩ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا

حكى الشرفي في (المصابيح) في تفسير الآية من (سورة الأعراف) عن الحسين بن القاسم ‌إ ما لفظه: ((ومعنى ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب خشّعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار، والخشية لله الواحد الجبّار، ولم يرد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا)) انتهى.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ﴿حِطَّةٌ﴾ بمعنى: حط عنا الذنوب.

قال في (الكشاف): ((والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطةً، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبوت، كقوله: [صبر جميل فكلانا مبتلى] والأصل: صبراً على أصبر صبراً)) انتهى.

قلت: لأن أول البيت: [شكى إليّ جملي طول السُّرى].

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جواب الأمر بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أو الأمرين من قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهو عندي أرجح ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً مع غفران الخطايا ونعمة دخول القرية.

۝٥٩ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من المأمورين بهذا القول، وفي (سورة الأعراف): ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [آية:١٦٢] فظهر: أن المبدلين بعضهم.

﴿قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي خالفوا الأمر، وأتوا بدل القول ذلك بقول خلاف المأمور به، ولم يظهر من الآية أنهم فعلوا ذلك استهزاء بالأمر، وليس يجب علينا معرفة ذلك البدل؛ لأن الله أبهمه ولم يبينه، إلاَّ بأنه غير الذي قيل لهم، وذلك محط الفائدة، ولا يبعد أن القول كان كلاماً استدعاه فرحهم بالدخول، وإعجابهم بقوتهم من أغاريد أو غيرها ـ والله أعلم.

عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ

وما قيل: أنهم قالوا: (حنطة) بعيد؛ لأن لغتهم عبرانية، وإنما المذكور من هذه الأوامر ومن قولهم هو ترجمة الواقع، وليس في الحروف موافقاً للكلمات العربية.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي المبدلين، وفائدة إعادة اللفظ أن لا يتوهم لو قيل عليهم عود الضمير إلى الكل من المأمورين بدخول القرية، ومما ذكر بعده ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يفيد: أنه شيء نزل من السماء، مثل: وبآءٌ ينزل في طل أو حر شديد يأتي به حر الشمس، وقد قيل: إنه طاعون ولا يبعد على معنى أنه وبآء نزل.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يفيد: أنه عقوبة على جرائمهم كلها، هذه المذكورة وغيرها، ويمكن دخول معصيتهم لموسى حين امتنعوا من دخول القرية، فدعا ربه ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥].

ويناسب هذا ما ذكره الشرفي في (المصابيح) حيث قال: ((وفي (البلغة): روي أنّ الآباء هلكوا، وبقي الأبناء وفيهم الفضل والعبادة)) انتهى.

وحاصل هذا: أن الفاسقين عند دخول القرية هم الفاسقون قبل أربعين سنة والله أعلم.

﴿٦٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيل هذا في التيه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هو حجر كان مع موسى ـ صلى الله عليه ـ يحمل بين يديه على حماره، وذلك أنه لما استسقى الله سبحانه لقومه إذ عطشوا، أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ولم يكن إلاَّ حجراً صغيراً، وكانت الآية في الصغير المحمول المتحرك المنقول عظيمة جليلة أعظم أمراً من الحجر الراسي، لأنه لو كان راسياً لقال فيه القائل: إن الماء ينبع من الأرض في الحجر، فلما أن كان حجراً صغيراً يحمل كانت آية جليلة عظيمة باهرة من آيات الله الجليلة)) انتهى المراد.

قلت: انفجار الماء اثنتا عشرة عيناً من الحجر بسبب ضرب موسى إياه بالعصا آية عظيمة، سواء كان راسياً أم منتقلاً، وإنما أراد المرتضى × أن الآية عظمت أكبر من ذلك بكون الحجر صغيراً منتقلاً.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قيل: كل سبط، وكانوا اثني عشر سبطاً، والمراد: ذرية كل سبط، وهذه نعمة؛ لأنه يقل الاختلاف والمزاحمة والمسابقة على الماء، وهذا تشعر به الآية في (سورة الأعراف): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ..﴾ الآية [١٦٠].

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمر إباحة وتعبير عن الإنعام عليهم بذلك، ونهي عن الفساد في الأرض؛ لأن الواجب شكر النعمة لا مقابلتها بالفساد في الأرض الذي هو كفر قد يؤدي إلى سلب النعمة وتعجيل النقمة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، والعثيّ الفساد أو أشد الفساد، ومفسدين حال مؤكدة، وصح ذلك لاختلاف اللفظ.

وإذا قابلت بين هاتين الآيتين وبين آيتي (سورة الأعراف) وجدت في كل منهما فائدة خاصة، فهنا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فأفاد: أن الذي جرّأهم على التبديل هو ظلمهم من قبل، وهنا ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

وَٰحِدٍ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾

فأعاد اللفظ ليفيد: أن العذاب عليهم خاص، ولكن ليس في هذه تصريح بأن المبدلين بعضهم، فأفاده في (سورة الأعراف) بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ [آية:١٦٢] وفي (سورة الأعراف): ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [آية:١٦١] ولم يقل: ﴿رَغَدًا﴾ وقال في (آية البقرة): ﴿رَغَدًا﴾ فأفاد سعة المأكول في كل موضع شاءوا.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ طعام واحد ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ واعتبروه واحداً من حيث أن غداءهم وعشاءهم كل يوم منه لا يخلفه طعام آخر، فاعتبروا المجموع من المن والسلوى طعاماً واحداً نظراً إلى الثاني الذي يريدون أن يخلفه.

وقولهم: ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ الظاهر منه يخرج لنا من الأرض، أي ينبت لنا، والبقل: الفُجْل وما أشبهه مما لا ساق له، ويستنبت أو ينبُت بالبذر، ولا يبقى أصله في الأرض كما يبقى أصل الحشيش، هذا الذي يظهر من التفاسير المختلفة أنه يجمعها، أما موضع الخلاف فالله أعلم بالحقيقة.

والقثاء: الخيار، أو شيء مثل الخيار، وفومها، قيل: هو البر، وهو الأقرب، وقيل: هو الثوم، قلت: لو قرن بالبصل لكان الظاهر، ولكنه قرن بالعدس، وهو من الحبوب وهو البلسن، والبصل معروف يجعل في الطبائخ وغيرها،

وهو نافع من الوباء ومن ضرر اختلاف الماء على المسافر، وفيه منافع كثيرة مذكورة في الطب، وفي إضافتهم هذه الأشياء إلى ضمير الأرض تنبيه على أنهم يريدون طعاماً من نبات الأرض من حيث هو من الأرض خلاف ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

ولعل سبب ذلك: أن طعامهم قبل التيه كان مما تنبت الأرض من هذه الأشياء، فلما طالت مدتهم في التيه ولا طعام لهم مما كانوا ألفوه في نشأتهم وتربيتهم إنما طعامهم خلافه، وهو المن والسلوى، والمن والسلوى وإن كان خيراً من تلك الأشياء، فإن استمرارهم عليه كان سبباً لقلة رغبتهم، واشتياقهم إلى ما كانوا يأكلونه من الأشياء المختلفة من ألوان النبات، كما قالت ميسون شعراً:

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف

إلى آخر الأبيات.

﴿قَالَ﴾ موسى × : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فإن من الغلط أن يكون طلب الإنسان تبعاً لمجرد الرغبة وإن فوت الذي هو خير له.

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ إن هبطتم مصراً، ولعل هذا كان قبل معصيتهم وامتناعهم عن دخول الأرض التي كتب الله لهم، وقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة:٢٦] فكأن موسى × يقول لهم: إن طعامكم واحد ما دمتم في التيه، لا يدعكم الخوف أن تفتحوا لأنفسكم مصراً من أمصار الجبارين الذين تشردتم في التيه من خوفهم، فإن شئتم المطعومات التي طلبتم، فاهبطوا مصراً من تلك الأمصار ليكون لكم وطن وقرار وتزرعوا ما تحبون.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فلم يزالوا في التيه إلى تمام أربعين سنة ﴿وَبَآءُو﴾ بعد ذلك ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا حين تمكنوا في الأرض كما قال تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأنه سبب الغضب كونه قتلاً ظلماً وعدواناً على النبيين، والنبيون ـ صلوات الله عليهم ـ لا يقتلون إلاَّ وقتلهم بغير الحق، ولكن من حسن البيان التصريح بما هو محط الفائدة، ولعل فيه ـ أيضاً ـ فائدة أخرى، وهي: أنهم عباد من عباد الله، فلو أنهم استحقوا القتل ما غضب الله له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي وقع منهم الكفر وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم أو معاصيهم وعدوانهم المتكرر منهم، فالمعاصي والعدوان جرتهم إلى ما هو أكبر وجرأتهم على ما هو أخطر، فمن أجل ذلك ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والذلة: خلاف العزة.

وذلك يفيد: أنهم صاروا في حال يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم، والمسكنة الضعف والخضوع، ولعلها سميت مسكنة من السكون؛ لأن صاحبها لا يتحرك للدفاع، بل يلتزم السكون لضعفه، والاعتداء ظلم الغير، مثل اعتدائهم في السبت بصيد الحوت وهو محرم عليهم.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ الذين آمنوا هم الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ص وما يجب الإيمان به، والإيمان

تصديق وقبول وإذعان يدعوا إلى الطاعة باللسان والجنان والأركان؛ لأنه يسبب الخوف من العقاب والرغبة في الثواب، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] وغيرها، والذين هادوا هم اليهود، والنصارى هم المنتسبون إلى دين عيسى × .

وأما الصابين، فحكى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى × أنه قال: والصابين، فهم فرقة أخرى من النصارى يدعون بالصابين، وإنما اشتق اسم الصابين من الصبو، يقال: صبا فلان. وفي ذلك ما يقول الشاعر:

صبوت إلى اللهو بعد المشيب وقد كنت للّهو قدماً تروكا

قلت: وقول الله تعالى حاكياً عن يوسف × : ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣٣] وعبارة (لسان العرب): ((الصّبوة: جَهْلَةُ الفُتُوّة واللهو من الغزَل، وقال: وصبا يصبو صَبْوةً وصُبُوّاً: أي مال إلى الجهل والفتوّة)) انتهى، فلعل تسمية (الصابين) بهذا الاسم كانت ذمّاً لهم بميلهم إلى الباطل على التشبيه بمن يصبو، وهذا التفسير على (قراءة نافع) بغير همز.

فأما على قراءة ﴿ٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ بالهمز ـ فقد فسره بعض أهل اللغة: بالخروج من دين إلى دين، وقالوا: الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح، قال في (لسان العرب) وفي (الصحاح): ((جنس من أهل الكتاب..)) إلخ.

قلت: وهذا أقرب لتتفق القراءتان على معنى واحد، والأولى: أنهم فرقة أصل دينهم النصرانية، ولكنهم غيروا فيه حتى خرجوا عن النصرانية وصار لهم اسم خاص.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من آمن أي من كل الملل المذكورة، ولا مانع من شمول الذين آمنوا؛ لأنهم مأمورون بالإيمان فيما بقي من أعمارهم، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ الآية [النساء:١٣٦].

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥)

وأما بقية أهل الملل، فالمعنى: دخلوا في الإسلام واتقوا الله؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح يستلزم ذلك كما قدمناه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾في الآخرة؛ لأن توبتهم تمحو ذنوبهم السابقة، فالآية وعد وتبشير لأهل الملل كلهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، ودعوة لهم إلى الإيمان.

(٦٣) ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ على أخذ التوراة وما آتاهم الله على لسان موسى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي الجبل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ..﴾ الآية [الأعراف:١٧١] وذلك ليمتثلوا أمر الله تعالى بقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بعزم صادق قوي وصبر ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الوعد والوعيد والهدى لمن اهتدى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ربكم وتتقون عذابه الذي لا بد منه إن خالفتم ونكثتم.

(٦٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق والآية العظمى والنعمة الكبرى بالتعريض على الهدى ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بهدايته لكم إلى التوبة والرجوع إلى العمل بالميثاق ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أهل النار الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فاتقوا الله واعتبروا بهم، واحذروا أن ينزل بكم العذاب العاجل كما نزل بهم.

﴿فَجَعَلۡنَـٰهَا نَكَـٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا﴾

والذين اعتدوا في السبت: هم الذين ذكرهم الله في (سورة الأعراف) وفصّل قصتهم من قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [آية:١٦٣] والقرد: حيوان معروف قريب من مشابهة الإنسان في صورته وإدراكه، ومعنى ﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾ مطرودين من رحمة الله في ذلة وهوان.

٦٦ ﴿فَجَعَلۡنَـٰهَا﴾ أي هذه المصيبة النازلة والعقوبة العاجلة ﴿نَكَـٰلٗا﴾ أي عذاباً عقوبة وزجراً ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾ من المعاصي المستقبلة ﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾ المعاصي السابقة أي لأجل ما خلفها من المعاصي؛ لأنها زاجرة عنه لبني إسرائيل كقوله تعالى في السارق والسارقة: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] فالجزاء لهما والنكال لهما ولغيرهما.

وعلى هذا فـ(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾ لام التعليل، أي من أجل ما بين يديها وما خلفها، أو لام الاختصاص أي جعلناها لما بين يديها زجراً، ولما خلفها جزاءً، وفائدة الزجر لما يكون بعدها زيادة الحجة على من ارتكب مثلها أو خلافها مما يسبب العذاب.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين تنفعهم المواعظ؛ لأنهم يتّعظون فلا يرتكبون مثلها مما يوجب العذاب، فاعتبروا بما قد علمتم.

٦٧ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ لأنهم لم يتوقعوا مثل هذا الأمر، واستبعدوا أن يؤمروا بذبح بقرة واحدة على كثرتهم، واستعدادهم للعمل بالتكليف الثقيل، فجوّزوا أن موسى × غير جاد في هذا الكلام، وإنما قاله استخفافاً بهم.

هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يقول × : إن هذا لَو وقع هزؤاً مني لكان جهالة عليكم حين آمركم بما لم يأمركم بـه الله، وجهالـة مـن حيث أنه قول على الله ما لم يقل، وتعظم بوقوعهـا مـن رسـول الله إلـيكم، فكيف تقع مني؟ ولكنه لم يقل: فكيف تقع مني، وأكتفى بالتعوذ بالله؛ لأنه في براءته من ذلك معتمد على لطف الله وعصمته، وفيـه تعـريض بهـم؛ لأن كلامهم هذا جهالة، وكان التعوذ هذا دليلاً على أنه بريء من حيث قد أفاد أنه جهالة لا تليق به، وهو رسول، ومن حيث دل على شدة كراهته للجهالة بالتعوذ بالله منها، ومعنى أعوذ: أستجير بالله وألجأ إليه لينجيني.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الدعاء هو طلـب مـن يعتـبره الـداعي أعلـى بالقدرة والقهر تذللاً وافتقاراً، وقولهم لنا يفيد دعواهم أنهم يريدون امتثـال الأمر، إنما يؤخرهم انتظار البيان.

وقولهم: ﴿رَبَّكَ﴾ وهم يعلمون أنه ربهم، فلم يقولوا ربنا مـع أن الطلـب من أجلهم؛ لأنهم يعلمون أن لموسى صلة بربه من أجلها يستجيب له، وكذا في قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ وقولهم فيما يأتي: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقد لاحظ هذا المعنى قوم فرعون، حين قالوا: ﴿يَامُوسَى ادْعُ لَنَـا رَبَّـكَ بِمَـا عَهِـدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] واعتبرت هذه الصلة في الآيات الكريمة من سـورة (قـد أفلح المؤمنون): ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [آية:٥٧] حيـث جـاء ذكر ربهم في أربع آيات متتابعة، ولم يأت الضمير فيما بعد الأولى.

وقولهم: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ دعوى أن أمرهم بذبح بقرة مجمـل يحتـاجون إلى بيانه، وهو في الواقع مطلق يصدق بذبح أيّ بقرة ذبحوها لو امتثلـوا قبـل

﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

هذه المطالبة، ولكن أنفتهم من أن يكون هذا هو المراد، وهَوَاهُم في أن يكون المراد بقرة مخصوصة لذبحها، معنى زائد على ذبح غيرها، حَمَلهم على جعل المطلق مجملاً، وهكذا الهوى، يصد عن الحق، ويحمل على تفسير كلام الله ورسوله بما يوافق الهوى وإن خالف الحق.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فقيد ذلك المطلق، وصار التكليف بالمقيد من أجل طلبهم البيان لغير مجمل. قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : والفارض: المسنّة التي قد انفرض فمها، وانفراضه فهو: سقوط أسنانها، والبكر، فهي: لم تلقح قط)) انتهى المراد.

وقوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي متوسطة في سنها بين الفارض والبكر ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ من ذبح البقرة التي هذه صفتها، فقد وجب عليكم بأمر الله.

﴿٦٩﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ قوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي شديدة الصفرة خالصتها، وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ يفيد: جمالها بلونها، وحسن صورتها، وهذا تقييد للمطلق مع التقييد الأول، فصار المأمور به بقرة جامعة للوصفين.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ بوجود عدد من البقرات فتيات صفر جميلات، فنحن مترددون لا ندري أيّتهن المراد ذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد، إذا بيّن لنا مرة ثالثة بياناً ثالثاً.

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أن الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ الذّلول: المذللة للعمل التي ألفت العمل فذلّت لمن يعمل عليها، وإثارة الأرض: حرثها المظهر لبعض ما بطن، والمفتت لبعض ما كان جامداً متلاصقاً.

والمعنى: أنها ليست ذلولاً بحيث أنها تثير الأرض، وفي هذا التقييد إشارة إلى أنها ذلول لسائقها وقائدها، فذلك غير منفي، إنما المنفي كونها ذلولاً لحرث الأرض، وأنها لا تحرث الأرض، فجمع قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بين نفي كونها ذلولاً للحرث ونفي اعتياد الحرث الذي تكون به ذلولاً، وقوله: ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ يفيد: أنها لا تنزع الماء لسقي الحرث، فأفاد سلامتها من تعب العمل.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سليمة من العيوب، سلمها الله منها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فلونها واحد لم يوشّ بلون آخر من غرة أو تحجيل أو غير ذلك ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنك جئت بالأوصاف التي معها يصعب امتثال الأمر، وذلك هو الذي نهواه، فجعلوا الحق تابعاً لهواهم، و ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ بجفائهم وجلافتهم، وقد جاء بالحق من قبل.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ جامعة للصفات ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أنفة من تكليفهم بذبح بقرة، فذبحوها وهم كارهون لذبحها، بحيث كادوا أن لا يذبحوها، ولم يكفهم صعوبة هذا التكليف بزيادة أوصاف البقرة؛ لأنه لم يخرجهم عن كونهم كلفوا ذبح بقرة.

وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا﴾ تدافعتم كل يدفع عن نفسه تهمة القتل ويلصقها بغيره ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ (الواو) للحال، أي تدارأتم فيها في حال أن الله مخرج ما كنتم تكتمون، وهو يعم قتل القتيل وغيره، كالباعث على قتله، والغرض المقصود به.

﴿٧٣﴾ ﴿فَقُلۡنَا﴾ لكم: ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾ أي القتيل المفهوم من قوله: ﴿قَتَلۡتُمۡ﴾ ﴿بِبَعۡضِهَا﴾ أي ببعض البقرة بعد ذبحها، حكى الشرفي في (المصابيح) عن المرتضى × أنه قال في البقرة المذكورة: وهذه فهي التي أمر الله سبحانه أن يضرب القتيل ببعضها، وذلك أنه قتل قتيل في بني إسرائيل، فادّارأوا فيه واتهم بعضهم بعضاً بقتله، وعظم بينهم الأمر فيه، فأمرهم الله عز وجلّ أن يضربوه ببعضها، ففعلوا ذلك، فعاش القتيل وأخبرهم بقاتله، فكانت هذه آية عظيمة جليلة في إحياء الله سبحانه له، وقد كان قادراً أن يحييه بضربة عود لو أمرهم لقام مقام البقرة، ولكن الله يفعل ما يشاء، لا معقّب لحكمه.

﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ كما أحيى هذا القتيل ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يريكم دلائله الدالة على قدرته وعلمه وسائر ما دلت عليه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ما تدل عليه، وتعلمون وتفهمون، أي وكذلك يريكم الله آياته، فكم آتاهم من آية بينة، فكان في أمرهم بذبح البقرة سرّ لو علموه لم يتعنتوا ذلك التعنت، ولكنهم كانوا لو علموه لاختلفوا، فالبريء يدعوا إلى امتثال الأمر، والقاتل ومن يتعصب له من قريب أو نحوه يمتنعون ويتعللون،

وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

فكان لا يحصل ذبحها منهم كلهم، وضرب القتيل ببعضها منهم كلهم، وذلك أنهم شركاء في الذبح بالفعل والرضى، وشركاء في ضرب القتيل ببعضها بالفعل والرضا.

فأدّى ذلك الذي فعلوه واشتركوا فيه إلى إحياء القتيل وانقطاع التدارؤ فيه بإخباره بقاتله منهم، بحيث علموا بتلك الآية العظمى أن الله هو الذي أحياه وأنطقه كلهم، واتضح الحق فيه لهم كلهم، وكان المقصود الأعظم أن يريهم الله كيف يحيي الموتى آية لهم وزيادة في الحجة على من كفر، وآية لنبيئهم الذي كانت هذه الأوامر من طريقه لينقادوا له ويتركوا التعنت عليه.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور كله من الإحياء للقتيل وما كان فيه من الموعظة لكم والتذكير بإحيائكم بعد موتكم، والدلالة على قدرة الله عليه بما شاهدتم، وما تقدم تعديده من النعم والآيات من قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي﴾.

﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ لأن قلوبكم لا تلين لآية ولا لموعظة ولا تتأثر لتخويف ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأنها تلين له حتى يخرج منها بقوة وكثرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ تضعف عن التماسك مع ضغط الماء فتشقق له ليخرج منها، أما قلوبكم فلا تلين لتكون مصدراً للخير ولا تتأثر بالمواعظ والآيات لتسمح بأن يخرج منها شيء من الخير خضوعاً للحق ورقّةً ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ﴾ يسقط وينزل ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لضعفه عن الاستمساك في مكانه الذي أذن الله بهبوطه منه حيث لم يبق له ما يحفظه في مكانه.

وذلك إمّا لأنه قد يكون بسبب استمساكه مكانه وكان ضعيفاً مع ثقله فسقط لغير سبب ظاهر، وإما أن سبب استمساكه وإن كان قوياً فلم تكن قوته تكفيه لحفظه عند عارض غالب من رجفة أو مطر، ولما كان سقوطه ونزوله من مكانه يشعر بعجزه عن الاستمساك في مكانه وضعفه عن مخالفة أمر الله فيه وإذنه بهبوطه بما هيأ له من السبب الأصلي أو العارض قيل فيه: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ إما على المجاز كأنه هبط من خشية الله؛ لأنه انقاد لقضائه فيه ذليلاً، وإما على الحقيقة إذا كان له حياة مخالفة للحياة المعهودة من حيث أنا لا نرى لها حركة اختيارية، وإنما احتمل الكلام هذا؛ لأنه كلام الله القادر على كل شيء العليم بكل شيء، فهو يعلم ما لا نعلم، وليس في تجويز ذلك فتح لباب الجهالة، إنما ذلك لو جوزنا لها حياة مثل هذه الحياة المعهودة في الحيوان المتحرك بالحركات الاختيارية، فأما حياة مخصوصة خلافها لتعرف الله وتخضع له فلا مانع منها في العقل.

ويؤكد هذا قوله: ﴿مِنْهَا﴾ ولم يقل: وإنها لَتَسَّاقط، حتى نقول: المراد أن شأنها ذلك ومن حقها أن تتساقط لو جعل الله لها عقولاً وأراها آياته، وقد يكون هذا إشارة إلى الجبل في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣] والظاهر فيه: أنه جعله دكاً بتجليه له.

وفي كلام القاسم × في (الرد على من زعم أن الله يُرى بالأبصار) في (مجموعه) [ص٤٠٥]: «أحدث في الجبل عقلاً يدرك به ما يتجلى له، وإن الله تبارك وتعالى أحدث آية فتجلّى الله للجبل [بها] وجعلها آية سماوية ولم تكن أرضية» انتهى المراد.

قلت: يعني أن الجبل عرف الله معرفة تامة قوية، فعظّم الله وبلغ من تعظيمه أن تقطع وساخ وذهب، فلا مانع من حمل الآية الكريمة على هذا،

۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ

فهو معنى حقيقي معهود عند السامعين المخاطبين من بني إسرائيل، ومثله ممكن عندهم، فلا حاجة معه إلى صرف الكلام إلى المعنى المجازي.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا بد أن يحاسبكم عليه ويجازيكم.

﴿٧٥﴾ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ مع قسوتهم هذه ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كلام الله، يصنعون ذلك بكلام الله من التوراة التي هي كتابهم، لا يتحرجون منه، ولا يخافون لقسوة قلوبهم، ومن كان كذلك لا يرجى منه إيمان لكم وقبول منكم.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ خداعاً ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة يحتجون عليكم بما أقررتم به في الدنيا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأن من شأن العاقل أن لا يعين على نفسه.

﴿أَ﴾ يقولون هذا ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كما هو اللائق بمن يقول ذلك، فهم حينئذ أحق أن يعاب عليهم وينكر عليهم مخالفة العقول، فإن كانوا يعلمون ذلك، فكيف لا يعلمون أنه سواء في علم الله حدثوهم أم لم يحدثوهم حاجوهم به أم لم يحاجوهم به؟! وأين عقولهم حين ينكرون على أصحابهم التحديث ويعتبرونه مخالفة للعقول؟! أما إذا أنكروا عليهم التحديث وهم لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، فهم أجهل وأجهل ممن يعيبون عليهم التحديث!

أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ

﴿٧٨﴾ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من قوم موسى ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، فهم جاهلون بما في الكتاب، وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن الأماني غير معلومة لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والأمنية: ما يرغب فيه ويرجى من الخير، وقد يكون الرجاء صادقاً، وقد يكون خطأ، وفي شعر محمد بن عبد الله النفس الزكية × الذي رواه في (أمالي أبي طالب):

متى أرى للحق نوراً وقد ... أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنيّة طال عذابي بها ... كأنني فيها أخو حلم

وقد فسر أمانيهم القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ فهؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب وإنما يظنون أماني قد اتكلوا على الأماني فأعرضوا عن الدين وعن التعليم وتفرغوا للدنيا.

﴿٧٩﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ من كتبهم التي يكتبون غير كتاب الله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ يشير إلى أنهم ابتدعوه بأيديهم جرأة على الله ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ليوهموا أنه من التوراة.

ونظير هذه قوله تعالى في (سورة آل عمران): ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آية:٧٨].

أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ إما الرشوة وإما ما هم عليه من الثروة بسبب رئاستهم في أهل دينهم، وإما كل ذلك يشترونه بالكذب على الله ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ وعيد بالعذاب ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الزور ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا وما يشبهها من الهدايا المحرمة وغيرها.

﴿٨٠-٨١﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ منتهية يحصرها العدد.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ لأنه أصدق القائلين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد جمعتم بين باطلين، القول على الله بغير علم والتمني الباطل الذي يُجرِّؤكم على الباطل، وهذا هو الواقع؛ لأن الله سبحانه لو كان وعدهم ذلك ما عاب عليهم القول به.

وقد حقق هذا بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة نفي لما قالوا به في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ثم فَصَّل معنى هذا، فقال تعالى: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ لم يكن له من شرها منجى، كقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦] أي تغلبوا وتُقهروا ولا تجدوا لإنقاذه سبيلاً، فالمعنى لم يكن له ما ينقذه من شر خطيئته من عذر صحيح كالخطأ والنسيان والإكراه أو توبة تمحو السيئة، بل تورط في العذاب بسببها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون فيها لا يموتون سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا وَذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا

﴿٨٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ باقون، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، فالجنة جزاء على الأعمال الصالحة، والنار جزاء على الأعمال السيئة، ولا فرق في ذلك بين أهل الكتاب وغيرهم.

﴿٨٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾ أي تحسنون بالوالدين إحساناً، والمعنى ـ فيما أعتقد والله أعلم ـ أن الله أخذ منهم ميثاقاً، أي كلاماً موثقاً مثل أن أقسموا بالله لا يعبدون إلاَّ الله ويحسنون بالوالدين أو أخذ ميثاقهم، فأقسموا لا يعبدون إلا الله، وأمرهم أن: أحسنوا بالوالدين إحسانا.

﴿وَذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ القريب في النسب ﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ اليتيم: الصغير الفاقد لأبيه ﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينِ﴾ المسكين: الفقير الشديد الحاجة، بحيث يحتاج إلى السؤال، سواء سأل أم لم يسأل، وأما الحديث: «ليس المسكين هذا الذي ترده اللقمة واللقمتان..» إلى آخره، فإنه من المجاز كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الإحياء

لأن المقصود بالحديث التنبيه، والحث على التصدق على المحتاج الذي لا يسأل، وبيان أنه أشد في معنى المسكنة، وليس المقصود تعليم اللغة ولا وضعاً جديداً.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ أي حسناً بالفتحتين، وفيه مبالغة في وصف الكلام بالحسن، حتى كأنه حُسْن ـ بضم الحاء وسكون السين ـ أو المقصود الأمر بحسن القول لا القول نفسه، فليس المقصود إلاَّ تبعاً للأمر بالحُسن، وفائدة هذا ترجيح الصمت، حيث لا يكون المقصود حُسن القول، والحُسن ضد القبح، فيعم الإحسان الطبيعي الجائز الذي ليس معه وجه قبح، والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد مر تفسيره ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن أمر الله ونهيه وما أخذ عليكم الميثاق به، والتولي، ضد الإقبال إلى الشيء، وتوليهم: هو توليهم عن الله بترك عبادته وإقبالهم إلى الدنيا، وترك طاعة الله في أمره ونهيه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على تحريم الشرك بالله، وعلى وجوب الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وعلى أن يقولوا للناس حسناً، من أمرٍ بمعروفٍ ونهي عن منكر، وإرشاد ضال، وابتداء بالسلام وردّه، وتشميت العاطس، واجتناب الفاحش من القول، والسب والمراء، وعلى تحريم التولّي والإعراض عما ذكره الله وشرعه في هذه الآية)) انتهى.

قلت: والفرق بين الوالدين وسائر الناس في هذه الآية: أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين غير خاص بالقول، وكذا ذو القربى واليتامى والمساكين، فيعم الإحسان ببذل المال وبالأفعال للنفع والدفع، ويفهم منه قبح الإساءة إليهم.

مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يدل على تحريم الشرك الأكبر، وعلى تحريم الشرك بالعبادة الذي هو الرياء، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ دليل على أنه لا يدل على ضعف المذهب قلة القائلين به، وأنه قد يكون هو الحق.

﴿٨٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ لما كانوا جماعة واحدة في نسبها وملتها نسب إلى جملتهم دماء بعضهم وإخراج بعضهم من ديارهم كما ينسب إلى جملة البدن ما يقع على عضو منه، وفيه إشارة إلى أن ضر البعض ضر للجملة، كما يقال في المثل العرفي: «القَدّ في الثوب والكسر في الصَّبَح» أي في الساق ـ والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ به على الدوام، لم تنسوه ولم ترجعوا عن الإقرار به.

﴿٨٥﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كلمة احتجاج،

ومثلها واقع في لغتنا، يقول القائل منا لصاحبه ـ محتجّاً عليه ـ: أنت ذا فعلت كذا وكذا، والمفروض أن لا يقع منك هذا، أو نحو هذا الكلام، ولعل الأصل في هذه الإشارة أنه يؤتى بها للتسجيل على المخاطب بأنه هو يفعل الجريمة كما تقول: أنت يا هذا فعلت كذا وكذا.

وقوله: ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يفيد تكراره منهم وإصرارهم عليه، فهم باقون عليه في الحال، وهذا أبلغ في التشنيع عليهم، وذكر في (الكشاف) أن قوله: ﴿ثُمَّ﴾ هو استبعاد لما أسند إليهم.

قلت: يعني أنه مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنۡ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ [الكهف:٥٧] وقول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلاَّ ابن حرةٍ يرى غمرات الموت ثم يزورها

وهو قريب. قال في (المصابيح): ((قال في (الكشاف): ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم، وتشنيع عليهم بما فعلوا من القتل والإجلاء من الدور بعد أخذ المواثيق عليهم)) انتهى المراد.

وقد سقط من المطبوعة التي عندي عبارة: ((وتشنيع عليهم بما فعلوا)) ومؤلف (المصابيح) متقدم قبل أربعمائة سنة تقريباً، أي قبل الطبع، وحذف الكلمة مخل. والفريق قسم مفارق لغيره.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تتعاونون، والإثم: الباطل ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ الظلم، وهكذا أهل الباطل يتعاونون من أجل باطلهم على ظلم أهل الحق، وفي هذه الآية دليل على أن المتعاونين يكونون شركاء في القتل والإخراج من الديار كما في ذبح البقرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿تَقۡتُلُونَ﴾ ﴿وَتُخۡرِجُونَ﴾ فنسب ذلك كله إليهم.

ﭐلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ أي إن يأتكم الفريق أسارى تنقذوهم من الأسر بدفع الفدية عملاً بحكم التوراة الموجبة عليكم ذلك فتحرجتم من تركهم، ولم تتحرجوا من إخراجهم وهو محرم عليكم إخراجهم.

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ حين تفادونهم ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ فأنتم لا تعملون بحكمه في تحريم إخراجهم من ديارهم، وهذا توبيخ لهم واحتجاج عليهم بإيمانهم ببعض، على فرض وقوعه لا إنكار للإيمان كما قدمت في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ هوان وافتضاح عقوبة القتل، والإخراج ومفاداة الأسارى ليس له جزاء، أي ثواب، لأنه غير مقبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾ كأنه جعل رداً لأنهم كانوا قبله في عذاب، فردوا إلى العذاب وهو أشد مما كانوا فيه؛ لأنه عذاب النار، وعذابها أشد العذاب، ويحتمل أشد العذاب في جهنم كعذاب آل فرعون لجرائم كبيرة وكثيرة، هذه المذكورة وغيرها كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ على قراءة نافع؛ لأنه راجع إلى من يفعل ذلك، وعلى قراءة حفص ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالمثناة من فوق؛ لأنه شامل لهم، فسيجازيكم عليه كله.

﴿٨٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الجرائم المذكورة في الآية الماضية أو في الآيات الماضية في (بني إسرائيل) كلها ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأن الباعث على تلك الجرائم كلها حب الحياة الدنيا الراجح على حب الآخرة،

أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا

فاختاروا الدنيا على الآخرة، وطلبوا الحياة الدنيا بما هو ترك للدين ورفض له ومحاربة له، فكانوا بذلك قد استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة؛ لأنها لا تنال إلاَّ بالدين وهم قد اشتروا الدنيا بالدين.

ويظهر: أنهم حين كانوا يقتلون بعضاً منهم ويخرجون بعضاً من ديارهم كانت هناك لهم سلطة، فمن تولاها أمن على حياته، ومن باين تلك السلطة لجورها وفسادها في الأرض خاف على حياته، فكان أكثرهم يميل مع السلطة حبّاً للحياة وحباً لأغراضها تبعاً لحبّها، فيعين السلطة لذلك على الظلم، فما كان من السلطان من قتل لأخيارهم وتشريد فهم شركاء فيه، وكانوا به قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

وهكذا يفعل جماهير هذه الأمة ليطمئنوا على حياتهم فينقادوا للظلمة حتى يصيروا معاونين لهم على الظلم، وحتى يصيروا مشاركين لهم فيما فعلوا من قتل أولياء الله وتشريدهم، والسبب الأول فيه حب الحياة الدنيا وكونه أرجح من حب الآخرة بحيث ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الذي هو أشد العذاب، بل يبقى على شدته أبداً ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ كما يمنون أنفسهم شفاعة أنبيائهم لهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا﴾ أتبعنا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات الواضحة الدالة على أنه رسول الله إليكم.

﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ قويناه بجبريل × الذي هو روح الطهارة من القبائح لعصمته، والواجب الاهتداء بهم، ولكن ما زادوهم إلاَّ نفوراً، فهم يكفرون ببعضهم ويقتلون بعضهم، فأنكر الله ذلك عليهم بقوله تعالى:

مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أنفتم من الخضوع للحق ﴿فَفَرِيقٗا﴾ من الرسل ﴿كَذَّبۡتُمۡ﴾ تبريراً لخلافهم واتباعكم لأهوائكم ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ محاربة للحق ونصراً لباطلكم، فأنتم مصرون على هذه الجرائم إلى الآن حيث تكفرون برسول الله محمد ص استكباراً وأنفة أن يكون الرسول من بني إسماعيل وأنفة من اتباعه.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ عليها أخبية تغطيها فلا تفهم القرآن، وهذا كقول قوم شعيب: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته بأن سلبهم التوفيق، وخذلهم كما في آية (سورة النساء): ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [آية:١٥٥] ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ وقلة إيمانهم إما لقلة ما يؤمنون به، فهم لا يؤمنون إلاَّ ببعض ما في التوراة، وهو ما وافق أهواءهم، وإما لقصر مدته، ففي كلام أمير المؤمنين × : ((فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً، ومنه ما يكون عواري بين الصدور والقلوب)) أو كما قال.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من كتب الله ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كانوا يدعون الله على الذين كفروا، أن يفتح بينهم وبين الذين كفروا، أي يفصل بينهم بحكم من عنده، وهذا الفصل إما بالنصر عليهم، وإما بالحجة القاطعة للخلاف.

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ بالدليل الذي يبين أنه الحق، وبموافقته الصفات الموجودة عندهم، فليس أمراً مستغرباً بحيث تنكره نفوسهم ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وصاروا كالذين كفروا من قبل؛ الذين كانوا يستفتحون عليهم، وجحدوا الفتح الذي كانوا يطلبونه من قبل؛ لأن القرآن والرسول ص وما جعل الله من النصر على الذين كفروا كل ذلك فتح بالنصر وبالحجة القاطعة للخلاف، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:١-٣].

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المذكورين أو المذكورين وسائر الكافرين، وهذه الجملة الاسمية أعظم مما لو قيل: فلعن الله؛ لأن الجملة الاسمية تدل على ثبات اللعنة واستمرارها، والأقرب: أن المراد بالكافرين المذكورين من أهل الكتاب وأن اللعنة هنا بمعنى اللعنة في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ (بئس) كلمة ذم، ضد نعْمَ في المدح، واشتراء النفس الممدوح: تقوى الله التي تنقذها من النار، فاشتراء النفس: إنقاذها من النار بالثمن الذي هو تقوى الله كما في الحديث: «الناس غاديان، فمشتر نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها» فلما كان هذا الإشتراء هو الذي ينبغي لكل عاقل وهو الإشتراء الممدوح سمي كفرهم بآيات الله الذي جعلوه بدل الإيمان والتقوى سمي اشتراءً على طريق المشاكلة التقديرية، ولكن جعل اشتراء مذموماً؛ لأنه لا ينقذهم من النار، بل يوقعهم في النار ويخلدون فيها بسببه.

﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هـذا الـذي اشـتروا بـه أنفسـهم المـذموم ﴿بَغۡيًا﴾ محاربـة لله ورسـوله؛ كراهـة ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ من بني إسماعيل أو غيرهم، والمنزل من فضل الله هنا الكتـاب والحكمة، كرهوا إنزال الله لها على محمد ص، فقد كرهوا أن يكـون إنزالـه على من يشاء هو، كما قال الشاعر:

ألا قـل لـمن كان لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أســأت على اللــه في حكمه لأنك لـم ترضَ لـي مـا وهب

فالكفر مذموم وحده، فإذا انضاف إلى ذلك أنه بغي من حيث أنهم كفروا ليقتدى بهم ويضعف الإسلام بكفرهم وانضاف إلى ذلك ـ أيضاً ـ أنه حسد كان هذا الكفر يستحق الذم المضاعف.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فـاحتملوا ورجعـوا بغضـب مـن الله علـى غضب لتعدد الأسـباب، وأعتقـد أن هـذه ـ أيضـاً ـ مشـاكلة تقديريـة؛ لأن الإنسان يبوء إلى بيته بما يكسب لنفسه وعياله مـن الـرزق، وهـؤلاء رجعـوا حاملين غضباً على غضب، والغضب ما وقع عليهم من اللعنات والخزي في الدنيا.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الآخرة، فإذا مات هؤلاء كافرين كان لهـم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وفائـدة هـذا التعليـق علـى الكفـر وأمثالـه مـن التعليق: أن لا يتوهم أن الوعيد على الأشخاص الذين كان الكلام فـيهم، ولو تابوا وآمنوا، ونظيره في (سورة النساء): ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [آية:١٦٠-١٦١].

قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا

ومعنى أن العذاب ﴿مُّهِينٌ﴾ أن الله يهينهم به؛ لأنه إهانة من حيث أنه عذاب جزاء بما عملوا، وإهانة بما فيه من ضروب الإهانة كإطعامهم الزقوم وسقيهم الصديد وإرجاعهم إلى أمكنتهم منها كلما حاولوا الخروج، وقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وسحبهم في النار على وجوههم نعوذ بالله.

﴿٩١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لأن الله أنزله والحكم له لأنه ربكم، فالواجب عليكم الإيمان به؛ لأنه أنزله الله ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهذا منهم تحكّم على الله، إذ ليس لهم حق أن لا يؤمنوا إلاَّ بما أنزل عليهم، فيؤمنوا به؛ لأنه أنزل عليهم، أما غيره مما أنزله الله فيكفرون به وهو الحقّ مصدقاً لما معهم، فيكفرون به؛ لأنه لم ينزل عليهم مع أن دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم دعوى تكذبها أفعالهم، كما حققه قوله تعالى:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقتل مؤمناً متعمداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] فكيف إن كان المؤمن نبيئاً من أنبياء الله الذين وجب الإيمان بهم وبما أوتوا.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ حين غاب عنكم ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لأن الشرك ظلم عظيم.

فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ

﴿٩٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على اتباع ما أنزل إليكم ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ آية عظيمة قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ التوراة وغيرها ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجد وعزيمة وصبر ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ ما في الكتاب وغيره سماع طاعة وانقياد.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ﴾ حبّ ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾ وذكره كما قال الشاعر: أنتم حلول فؤادي وهو بيتكم

﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي بسبب كفرهم خذلوا، فصار في قلوبهم، وقد جعل عرض العجل عليهم أو حبه الذي ترتب عليه قبولهم له شبه السقي لهم إذا سقوا شراباً فشربوه لأنهم تقبلوه بسهولة وسرعة كما يتقبل الشارب ما يشربه فكأنهم أشربوا العجل إذ عرض لهم هو أو حبه فجعلوه في قلوبهم.

﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأن الإيمان بما أنزل الله يبعث على اتباعه والحذر من مخالفته، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٠-٦٥] وهذا تهكم بهم في دعواهم الإيمان، كأنه يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فإيمانكم يأمركم بقتل الأنبياء، وقولكم: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ وعبادة العجل والإصرار عليها ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾ وما هكذا الإيمان؛ لأنه يدعو إلى عبادة الله وحده والسمع والطاعة وترك قتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق. والمقصود أن دعواكم الإيمان تكذبها أفعالكم الخبيثة.

خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ

﴿٩٤﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ الجنة التي عرضها السموات والأرض وعند الله معدة لكم عنده و ﴿خَالِصَةً﴾ سالمة، فهي لكم كلها ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ سبقتم الناس إليها، فأنتم بالنسبة إليها من دون الناس فيما بينها وبين الناس، كقول الشاعر يصف شراباً صافياً:

تريك القذا من دونها وهي دونه

وأحسن من هذا قول الله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٣].

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ لأن من علم أن الجنة له لا يبالي بفراق الدنيا ويكون شوقه إلى الجنة أقوى من حب الدنيا؛ لقلة لذات الدنيا، واقترانها بالمنغصات والمتاعب، وعظم لذات الجنة، وخلوصها من المنغصات والمتاعب والأمن فيها من كل شر، فكيف لا يعجل عليها الإنسان الذي من طبعه العجل، ويتمنى الموت ليخرج من هذه الدنيا ويصير في الجنة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، حيث تزعمون أن الجنة لكم ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ في قولكم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لن يتمنوا الموت أبداً، وذلك لعلمهم بجرائمهم التي اكتسبوها، فإذا ماتوا صاروا إلى النار من أجلها،

أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ

بجرائمهم التي اكتسبوها، فإذا ماتوا صاروا إلى النار من أجلها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فهو يعلم ما يبدون وما يكتمون، ويعلم ما قد وقع منهم من الظلم الموجب للنار، وهذه الآية معجزة؛ لأنها خبر قاطع أنهم لن يتمنوه أبداً، وكان ذلك صدقاً لم يتمنوه، وهو خبر غيب مع أنهم مظنة أن يحملهم الجدل وحب تكذيب القرآن والرسول أن يتمنوا الموت؛ لأنها كلمة سهلة على اللسان، وليس الموت في العادة تبعاً للتمني، فقد يتمنى الإنسان الموت ولا يموت؛ لأن في أجله بقية، فلا بد أن باعثهم على التمني كان قوياً جداً، فلما لم يتمنوا دل ذلك على أنهم يعلمون أن هذا كلام الله وأنه ينذر بعذاب عاجل كالمسخ أو الخسف مما يكشف زيفهم بالتمني.

ودل ذلك على أن هذا كلام الله علام الغيوب، ولو كان محمد ص تقوّله ما تجرأ على أن يتحداهم بتمني الموت؛ لأنه لا يأمن حينئذ أن يتمنوا الموت فيكذبوه، وتكون لهم حجة عليه، فهذه معجزة أخرى، هذا كله لأنهم لم يتمنوا الموت؛ لأنهم لو تمنوه لاشتهر لتوفر دواعي الكفار والمنافقين إلى نقله على كثرتهم لو كان.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ لفرط حبهم للدنيا واعتقادهم أنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب الذي قد استحقوه بالكفر وغيره، والحرص: شدة الرغبة، وشدة طلب النفس للشيء، فهو من المعاني النفسية، وهو يبعث على شدة طلب الشيء، فلذلك يقال لمن اشتد طلبه للشيء: إنك لحريص على هذا، وذلك لأن شدة الطلب دليل على الحرص.

والحرص قد يكون على ما يمكن طلبه كالمال، وعلى ما لا يمكن طلبه كالحياة في بعض الأحوال، وقد يكون محموداً كالحرص على صلاح الناس والحرص على بقاء الصالحين، قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] وقد يكون مذموماً كالحرص على الحياة للتمتع بما تهواه النفس فيها لا لغرض ديني، وفي كلام أمير المؤمنين × الذي رواه أبو طالب في (الأمالي) في (ذكر الرزق) [ص٢٩٢]: عن أمير المؤمنين علي × قال: أوصاني رسول الله ص فقال: ((عليك يا علي باليأس عما في أيدي الناس، فإنه الغنى الحاضر)) فقلت: زدني يا رسول الله، فقال: ((يا علي إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر)) إلى قوله ((ولا تذم أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجرّه حرص حريص ولا يصرفه كراهة كاره)) انتهى.

فقابل الحرص بالكراهة، وأما قوله: ((فإنه الغنى..)) فالمراد أن اليأس يؤدي إلى القناعة، وقد قال × ـ كما في نهج البلاغة ـ: ((القناعة مال لا ينفد)) فلذلك جعل اليأس الغنى، أو لأن اليأس عما في أيدي الناس يذهب الطمع فيما في أيديهم ويوجب القناعة عما في أيديهم، وذلك يوجب الغنى عما في أيديهم، وهو المهم من الغنى.

فأما الفقر إلى الله فهو محمود، وليس هذا مقابلة بين اليأس والطمع، بل كل واحد في كلام مستقل بدليل قوله: ((زدني)) فقد ظهر من هذه الجملة أن الحرص شدة الرغبة، وقد فسروه بشدة الطلب، ولا ينبغي أن يكون المراد به إلاَّ طلب النفس، أي شدة طلب النفس.

ويؤكد هذا أن (صاحب الكشاف) والشرفي في (المصابيح) قالا في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف، انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): أي يحب أحدهم أن يعيش ألف سنة، فظهر أن الحرص هو شدة الرغبة.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ فالتنكير فيه؛ لأن المقصود على حياة في المستقبل، ولو قليلاً منها يعيشون، فهم يحرصون على أي حياة، ولو ساعة يحيون، ولم يناسب أن يقول: على الحياة؛ لأنهم فيها، وليس المقصود حرصهم على الموجود، بل المقصود حرصهم على المفقود في الحال، وهو الحياة في المستقبل، فإذا عاش اليوم فهو حريص على حياته في غد، وحريص على أن يحيى فيما بعد حتى أنه عند اقتراب موته وظنه أن قد قرب فراقه للحياة يحرص على حياة يبقى فيها ولو قلّت، ولو كان في شدة المرض وحين يرغب الإنسان في التخلص من شدة المرض وطوله ولو بالموت، فهؤلاء على خلاف ذلك لا يزالون راغبين في الحياة والبقاء كارهين للموت.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ فهم أحرص من الذين أشركوا من قريش ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وبيان تلك الجملة بهذه يبين أن المقصود حرصهم على حياة في المستقبل، ولو كان المقصود حرصهم على الحياة الموجودة لكان بيانه بذكر شدة حذرهم من أسباب فراقها، فالحرص على حياة في المستقبل يرجونها بطول آمالهم وحياة في المستقبل لا يرجون بلوغها؛ لأنها أبعد من المأمول.

فقد ظهرت فائدة التنكير لأنهم يحرصون على حياة لا يبلغونها، وهي غير الحياة التي هم فيها وهي المقصودة في هذا الذم أصالة، ويتبعها في الذم حرصهم على ما لا يعلمون أنهم يبلغونه؛ لأنهم يحرصون عليه سواء كانوا يبلغونه أم لا، فهم يحرصون عليه ولو كانوا في الواقع لا يبلغونه.

ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

والحاصل: أنهم أحرص الناس على حياة زائدة على الحياة التي هم فيها، ولو كانت زائدة على المكتوبة لهم، بل وعلى الحياة الزائدة على الحياة المكتوبة لهم، ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير عائد إلى أحدهم، أي وما أحدهم، هذا الذي يود لو يعمر ألف سنة ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وقوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل مزحزح، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢] وفي هذا تأكيد لوعيده بالعذاب، وبيان أنه لا بد له منه سواء عمر أم لم يعمر، وتجهيل له حيث يرغب في طول الحياة فراراً من العذاب، أي عذاب نار جهنم وطول الحياة لا ينجيه من العذاب بل لا بد له منه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بـ﴿مِنَ﴾ الابتدائية، تشبيه له في الحال بنفسه حين يكون في العذاب كأنه يقول: لا بد له من العذاب حتى كأنه الآن قد صار فيه، وهو لا يزحزحه منه أي لا ينجيه منه ويباعده أن يعمر، والزحزحة فيها معنى التنحية ـ بالحاء المهملة ـ والإبعاد، فلا تنحية ولا إبعاد ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعيى بجزاءه، وفي قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دلالة على استمرارهم في أباطيلهم.

﴿٩٧﴾ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب؛ لأن السياق فيهم أو لأهل الكتاب وغيرهم؛ لأنك رسول إلى الناس جميعاً.

لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((اعلم أنه لا بد من سبب وأمر قد ظهر من اليهود حتى يأمره تعالى بأن يخاطبهم، والمفسّرون ذكروا أموراً، ولنكتفِ هاهنا بما ذكره المرتضى × حيث قال: فإن اليهود لما سألت محمداً ص من الذي ينزّل عليك بالوحي؟ فقال لهم: ((جبريل ×)). فقالوا ـ عليهم لعنة الله ـ : فنحن أعداء جبريل، فهو عدوّنا؛ لأنه ينزل عليك بإبطال أمرنا، وهذا أعدى الخلق لنا، فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ..﴾..إلى قوله: ﴿..فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإنما هو مهلك لهم ومخزٍ ومعاقب)) انتهى المراد.

فقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ يشير إلى الذين عادوه من أهل الكتاب، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ أي فإن جبريل نزل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وقد تكرر قوله: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فوقع هنا، وفي (سورة الشعراء) فكأنه × كان يوصله إلى قلبه ص مباشرة، ويقوم مقام حاسة السمع التي توصل الكلام إلى القلب ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فهو الحق الذي ليس لكم أن تردوه بعلة عداوتكم للرسول الذي نزّله؛ لأنه لو كان باطلاً ما أذن الله بإنزاله.

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من كتب الله التوراة وغيرها، فلا عذر لكم في رده ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾فهو النعمة العظمى التي يجب أن تقبل وتشكر، فكيف تردوا الهدى الذي فيه سعادتكم إن هديتم، والبشرى لكم بالجنة إن آمنتم اعتلالاً بعداوتكم للرسول الذي نزل به، وكيف عاديتموه، وإنما جاء ـ بإذن الله ـ بالهدى والبشرى للمؤمنين.

﴿٩٨﴾ ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) ـ حاكياً عن المرتضى × ـ :

يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا

((ومعنى: عدو لميكائل، فإنهم سألوه من أين يأتي جبريل بالوحي؟ فقال: ((من ميكائل)) فقالوا: ميكائل ـ أيضاً ـ عدوَّنا)) انتهى المراد.

وهذه الآية تبين: أن اليهود الذين اتخذوا جبريل عدواً ليسوا أعداء له وحده بل هم أعداء لله وملائكته كلهم ورسله كلهم وجبريل وميكائل، وليس المراد بهذا السياق الإخبار بهذا، بل المراد الوعيد على هذه العداوة، وأفاد أنهم كذلك إن لم يتوبوا، وفائدة هذا التعليق أن لا يوهم أن الله عدو لهم ولو تابوا، وأكد هذا بتعليق العداوة ـ عداوة الله ـ لهم على الكفر حيث قال: ﴿عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: عدو لهم، وفيه فائدة عموم سائر الكافرين.

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ﴾ في دلالتها على صدقك، وأن الحق معك، وعلى إبطال المكذبين لك، وتهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفاجرون، أهل الجرأة على الباطل، والممارسة للقبائح؛ لأن الآيات بينات لا يجحدها منصف وجحدها قبيح جداً من حيث أهميتها من حيث أنها تهدي إلى طريق السعادة للناس كافة، ونجاتهم من عذاب الله، فهي خير عظيم عام للبشر، ومدافعتها شرّ عام عظيم.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلذلك يتجرؤون على نقض العهود، وقد كان من عهدهم الإيمان برسل الله، فكفروا برسول الله محمد ص، وبعضهم كفر بعيسى × ؛ لأن عادتهم وطريقتهم ترك الإيمان، والسياق في الكفار من (بني إسرائيل).

يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ ﷺ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ ﷺ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ **وهو محمد ص** ﴿مُصَدِّقٞ﴾ للتوراة، وما ﴿مَعَهُمۡ﴾ منها ومن كتب الله ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عُلّموا التوراة وما فيها من صفات الرسول وأخذ الميثاق عليهم بالإيمان برسل الله فنبذوا ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو التوراة، وذلك كبير جداً؛ لأن من نبذ كتاب الأمير في بلده يُعَدّ مسيئاً في حقه يستحق العقوبة، فكيف بمن نبذ كتاب ملك الملوك الذي يدعو عباده إلى رحمته وإلى أسباب كرامتهم ونجاتهم من العذاب المهين؟!

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ وهذا أقبح النبذ والتمرد أن يلقوه وراء ظهورهم رفضاً له واستخفافاً به ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم كأنهم لا يعلمون من وعد الله ووعيده ما يردع عن التمرّد، وكأنهم لا يعلمون من عظمة الله ورقابته عليهم ما يخيفهم من عذابه كأنهم لا يعلمون كما لا تعلم الأنعام.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾ الواو عاطفة لما بعدها على قوله تعالى: ﴿نَبَذَ﴾ فأفادت أنهم جمعوا بين الإثمين، نبذ كتاب الله واتباع ما تتلوا الشياطين، لارتكاب جريمة السحر، وتلاوة الشياطين قراءتهم التي بها يُعلمون السحر.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي أنهم يتلون السحر عليه ليوهموا أنه إنما تم الملك لسليمان به، وأن سليمان لما عمل به حصل له ملكه ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ ما عمل السحرَ كما أوهمت الشياطين.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ حكى الشرفيّ في (المصابيح): ((عن القاسم × أنه قال: السحر أمرٌ لا يواتي أهله إلاَّ بعظم من الكفر)) انتهى. هكذا في النسخة، ولعل الأصل: بعظيم من الكفر، ولعل القاسم × أخذه من هذه الآية، وأراد × أن الشياطين في حال تعليمهم الناس يكفرون ليواتيهم السحر ويحصل به ما أرادوا به، فظهر أنهم يحتاجون إلى الكفر لهذا الغرض؛ لأن السحر إنما يتقبله الناس عنهم إذا شاهدوا تجربته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ نفي لمفسدة من مفاسد السحر عطف على نفي المفسدة الأولى، أي عطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ و ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ اسم لرجلين كانا ﴿بِبَابِلَ﴾ سميا به لاعتقاد الناس فيهم الفضل الكبير، وظنهم أنهما في فضلهما بمنزلة الملكين، وذلك لما يجري على أيديهما من الخوارق في اعتقادهم، فجعلوهما ملكين كما قالت النسوة في يوسف × : ﴿إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

فبين الله تعالى: أن ذلك ليس منزلاً من عند الله تكون به الخوارق، وإنما هو سحر من الشياطين، أو أن اليهود كانت تدّعي أن الله أنزل السحر على الملكين ليوهموا أن الله يرضاه وأنه ليس كفراً، فرد الله قولهم هذا إذا كانت ما نافية، وهو الأظهر، والموافق لتفسير المرتضى × الذي حكاه الشرفي في (المصابيح).

وأما قول (بعض المفسرين): أنها موصولة، فهو بعيد؛ لأن السياق في ذم اليهود باتباع تعليم السحر، وعلى فرض أنها موصولة، يصير المعنى: واتبعوا ما أنزل الله، وهذا التعبير في الذم بعيد.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فهما يعرفان بأن السحر كفر أو لا يتم إلاَّ بالكفر.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهذه جريمة عظمى ينضاف فيها إلى كفرهم ظلم الزوجين، وما أكثر ما يصيب الناس هذا العدوان وما أشده على الزوجين ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإذنه بوقوع الضرر لا بإيقاعه، أي بإرادته التخلية بينهم وبينه وتمكينهم منه؛ ابتلاءً للمظلوم وفتنةً للظالم أو بإذنه أي بتخليته وتمكينه، وهو قادر على منعهم غير غافل عما يعملون.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي هؤلاء المتعلمون للسحر من أهل الكتاب لظنهم أنهم ينتفعون به بما ينالون به من المال، والواقع أنهم يتعلمون ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لأنه سبب لعذابهم وفساد عليهم في دينهم ولا يحصل به غرضهم من الثروة ووفور المال، بل يكونون مع استعماله كما لو لم يستعملوه أو أسوأ حالاً، وإذا كان معنى يضرهم بالنسبة إلى غرضهم من السحر الذي هو المال فهو دليل على أن السحر شؤم عليهم ونقص من أرزاقهم؛ لأن بعض المعاصي تنقص الرزق، فهو يضرهم في معاشهم ولا ينفعهم والأظهر يضرهم في آخرتهم أو في دنياهم وآخرتهم، ولا ينفعهم في دنياهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي نصيب، فقد علموا أنه يفوت عليهم الثواب ولا ينالون في الآخرة أيّ نصيب،

وعلمهم بذلك من التوراة أو غيرها من كتب الله، ومعنى اشتراه: استبدله بدينه، وهذه جرأة على معصية الله عظيمة وسوء نظر لأنفسهم.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ (بئس) كلمة ذم، و (اللام) تأكيد للذم، و ﴿مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ ما باعوا به أنفسهم؛ لأن في السحر هلاكهم وعذابهم الدائم الذي فيه يخسرون أنفسهم، فقد باعوها بالسحر.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم بئس ما باعوا به أنفسهم فينقذونها من الهلكة بالتوبة من السحر والرجوع إلى الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦] والمعنى لو كانوا يعلمون لانتفعوا بهذا التحذير والإنذار، وعدم علمهم بما أخبر الله به في هذا القرآن لغفلتهم وإعراضهم عن آيات الله واشتغالهم بالدنيا وكثرة ذنوبهم، فلم يعلموا أن السحر الذي باعوا به أنفسهم ذميماً أيّ ذميم.

وقد يشكل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ مع قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؟

والجواب: أن قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لو كانوا يعلمون أن السحر ذميم ـ أيّ ذميم ـ وهو ما عبر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ ــ وذلك لأنهم لا يعتبرونه ذميماً؛ لأن الشيطان قد زيّنه لهم مع حرصهم على المال الذي يحصل لهم به، وحبُّهم له من أجل المال ينسيهم عيبه، فلا يعتبرونه ذميماً لعظم فائدته في اعتقادهم، فاختلف المثبت والمنفي.

وكذلك يشكل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾؟

ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ

والجواب: أن المتبعين للسحر بعضهم، فما كل أهل الكتاب يعملونه، والذين يتبعونه يعلمون أن من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، والذين يعتقدون أنها لن تمسهم النار إلاَّ أياماً معدودة هم غير مرتكبي جريمة السحر، مع أن من الجائز عليهم أن يقولوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ وهم ـ أعني مرتكبي السحر ـ يعلمون أنهم في قولهم هذا كاذبون.

مع أن القائلين: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا﴾ المذكورين فيما مر، يمكن أنهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فيمكن أنهم هم القائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾.

وعلى هذا: فوظيفة بعضهم التزوير وبعضهم السحر، وأهل التزوير يقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وأهل السحر قد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من نصيب أو كلهم يعلمون ذلك، والقائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ هم الذين: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وقالوا ـ هم ـ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ يعنون أنفسهم لا كل أهل الكتاب على اختلافهم في الجرائم، فلا إشكال.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الذي أمروا به ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ربهم بأن تابوا من جرائمهم واجتنبوا المعاصي من وقت التوبة ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثواب من عند الله وهو الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ مما هم فيه من السحر والكسب الحرام ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ والأصل لو كانوا يعلمون لاختاروا ما هو خير لهم الذي هو الإيمان والتقوى، أو لعلموا أنه خير لهم، ولكنهم لكفرهم وغفلتهم وإقبالهم على الدنيا كأنهم لا يعلمون شيئاً ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤].

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ

﴿١٠٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ ﴿رَٰعِنَا﴾ راقبنا، أي لاحظنا ولا تغفل عنا ﴿ٱنظُرْنَا﴾ إما انتظرنا حتى نفهم ما تقول، أو انظر إلينا نظر الرحمة بحسن الرعاية لنا عند حضورنا لديك، فأمروا بترك كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ إما لأنها تشير إلى الغفلة وتجري مجرى انتبه لنا، وهي قلة أدب، وإما لسد ذريعة اليهود الذين كانوا يقولونها لغرض فاسد، كما يدل عليه قوله تعالى في (سورة النساء): ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [آية:٤٦] وإما للأمرين معاً ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما يبلغه رسول الله ص إليكم سماع قبول وطاعة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ اليهود الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ [النساء:٤٦] وسائر الكافرين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، أو هو عذاب النار وعذاب البرزخ وعذاب الدنيا بالمصائب العاجلة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] أي فيما بينهم الآن، وبين عذاب يوم القيامة، والأظهر أنه العذاب الذي سيعذبون به كله.

﴿١٠٥﴾ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ليس لهم كتاب، فوصفهم المعرف لهم أنهم المشركون حيث لا ملة لهم يعرفون بها غير الشرك ولا كتاب يختصون به وينتمون إليه، فوصفهم المعرف لهم المشركون، ولا ينافي هذا أن أهل الكتاب الكافرين أو أكثرهم مشركون؛ لأنه تعالى قد بيّن شركهم في (سورة التوبة) وإنما المقصود أن يعم الفريقين بوضوح.

مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بل هم كارهون لذلك؛ لأنهم يحسدونكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ولا يصرفها كراهة كاره؛ لأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فهو يؤتي فضله من يشاء، ولذلك أورث القرآن الذين اصطفى من عباده وصيّر فيهم النبوءة والكتاب بعدما كانت في (بني إسرائيل) وجعل محمداً رسولاً وأنزل عليه الكتاب.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ بنسخ حكمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بأن يحذف ذكرها من القلب بقوة إلهية ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أصلح منها بالنسبة لوقت نزول الأصلح، فالناسخة خير بالنسبة لوقت حكم النسخ لا بالنسبة لما قبل النسخ؛ لأن الخير فيما تقتضيه الحكمة من الناسخ في وقته والمنسوخ قبل نسخه.

وكذلك قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ على فرض النسيان، يكون البدل خيراً من المنسي، وعلى معنى النسيئة يعجل ما هو خير من المؤجل قبل وقت إنزال المؤجل، والحاصل: أن الخير فيما أنزل الله، وليس لأحد أن يعترض؛ لأنه كلام أحكم الحاكمين ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو ينزل ما يشاء.

﴿١٠٧﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يحكم ما يريد؛ لأن الحكم له في عباده ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم بالنعم والألطاف وحسن الرعاية ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذكم من عذابه، إن أراد أن يعذبكم، ولعل الخطاب لبني إسرائيل، بدليل ما قبلها وما بعدها، وهو ردّ على من أنكر النسخ منهم.

يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ

﴿١٠٨﴾ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حين قال له قومه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ غوي الطريق السوي وهو طريق الحق والسلامة والكرامة، وتبدل الكفر بالإيمان يشمل جعل الكفر بدل الإيمان بالردة عن الإيمان إلى الكفر وجعل الكفر بدل الإيمان باختيار الكفر، وهو يدعى إلى الإيمان فلا يجيب داعي الله ويختار الكفر.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبّوا ذلك، و﴿لَو﴾ للتمني، كأنه قال: تمنوا أن يردوكم من بعد إيمانكم الإيمان الصادق الذي لا نفاق فيه ﴿كُفَّارًا﴾ ليخرجوكم من النور إلى الظلمات ومن طريق السعادة إلى طريق الشقاء ومن عزة الإيمان إلى ذلّة الكفر.

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فالباعث هو الحسد الذي أوجدته أنفسهم الأمارة بالسوء بعداوتها لكم وحرصها على بطلان أمركم، والحسد غيرة تبعث على كراهة حصول النعمة للغير الذي يغار من حصول النعمة له أو كراهة بقاء نعمته، هذا الحسد المذموم، وقد يستعمل الحسد في الغيرة من دون قيد، ولعله أصل الحسد، وحقيقته، وينقسم إلى: محمود: وهو ما لم يبعث على الإثم، ورغّب في العمل الصالح لنيل مثل نعمة المحسود، ومذموم: وهو عكس المحمود، وهو الذي ذكرت أوّلاً، وخطره عظيم ـ نعوذ بالله منه ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

فانظر كيف صار المذكورون من أهل الكتاب من أجل الحسد من بعد ما تبيّن لهم الحق، وكان مقتضى العقل لو استعملوا عقولهم وتركوا الحسد أن يتبعوا الحق ليرضوا ربهم وينقذوا أنفسهم من النار ويسعدوا في الآخرة، وحينئذ يكونون إخواناً للمؤمنين سليمين من الحسد والعداوة لأهل الحق.

﴿فَٱعۡفُواْ﴾ عما يصدر منهم من الأذى وتحملوا ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ أعرضوا عن أذاهم، ولا تزادّوهم ولا تقاتلوهم باعتبار أنهم حين ذاك لا يشكلون خطورة كما يشكلها رموز الكفر من قريش وغيرهم، فالمعنى: تغاضوا عن قتالهم فليس الوقت وقتهم، وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بتسليطكم عليهم وأمركم بالجهاد في سبيله، وحينئذ لا عفو ولا إعراض، وليس المراد أن يصيروا إلى السباب، ولكن كما قال الشاعر:

فلا تكثري فيه المقال فإنه محا السيف ما قال ابن دا رة أجمعا

أو (أمره): نصره للدين، وإعلاؤه لكلمته، وحينئذ لا يضركم حسدهم، وهذا مناسب لآخر الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على إعزازكم وإذلالهم، وعلى الأول فهو قادر على تمكينكم من قتالهم بتوفير العدد والعدة، وتهيئتكم للقتال وتسليطكم عليهم.

والعفو، والصفح: ترك السباب والمماراة المؤذية والجدال الكثير، وترك القتال حتى يؤمروا به، والأولى فاعفوا عن أذاهم وأعرضوا عنهم، لا تقاتلوهم حتى يأتي الله بأمره، وأمره تقويتكم بأن يأمركم بجهادهم وينصركم عليهم، والأمر هنا بمعنى الشأن أي نصره وإعلاؤه لكلمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على ذلك.

وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ

﴿١١٠﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذلك يكفي عن الجهاد قبل الأمر به، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:٧٧].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حث على الإنفاق في وجوه الخير، وعلى فعل الخير كله، فالعبد إذا أنفق فيما يرضي الله فكأنه قدمه أمامه ليوافي يوم القيامة فيجده أمامه قد قدمه لنفسه، وكذلك فعل الخير كله، وفي كلام أمير المؤمنين في (وصيته لابنه الحسن إ): ((وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه، فاغتنمه، وحمِّله إياه وأكثر من تزويده)) انتهى المراد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ بالنسبة إلى الإنفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لعلمه بمراتب الحَسن في الحُسن ومقادير ما يناسبه من الثواب، وكذلك في كونه بصيراً بما يعمل المبطلون لعلمه بمقاديره في القبح ومقادير ما يناسبه من العقاب، فهو ينزل العمل منزلته اللائقة به، ويجعل له حكمه المناسب له كما يفعل البصير بالصناعة العليم كيف يتقنها.

﴿١١١﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أو على ما تقدم من أقوالهم مثل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أو على ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فجعلوا الجنة خاصة بهم، ومَنَّوا أنفسهم أنها لهم.

وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي هذه وما شابهها كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] كقوله تعالى ـ بعد ذكر نبي الله داود صلى الله عليه ونبينا محمد ص ـ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فالإشارة إلى المذكورَين وسائر الرسل، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:٢٨] أي المخاطبة وسائر النساء، فجمعهن في الخطاب من أجل الواحدة المخاطبة، ومعنى ﴿أَمَانِيُّهُم﴾ التي يمنونها أنفسهم.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والبرهان: الحجة، والمراد: بيان أنه لا حجة لهم، وإنما هي أماني من عند أنفسهم، فالأمر للتحدي؛ لأنه إذا طالبهم بالبرهان ولم يأتوا به تبين أنهم افتروا على الله كذباً؛ لأنهم أهل جرائم وتمرد على الله، فليسوا أهلاً لما يمنونه أنفسهم، ولأن غيرهم الذين أسلموا لله يدخلون الجنة، ولا شك في أنهم أهل لذلك كما كان المسلمون لله قبل اليهودية والنصرانية، فنفي دخولهم الجنة كذب على الله يكشفه عدم البرهان؛ لأنهم لو كانوا صادقين لكانوا في أمانيهم مستندين إلى برهان، فالفارق بين الصادق فيما يحكي عن الله، والكاذب على الله، هو البرهان للصادق، وعدم البرهان للكاذب.

﴿١١٢﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ تصريح بإبطال قصر الجنة عليهم ونفي دخول غيرهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام الوجه لله: جعله لله وحده لا يتوجه به لغيره، ومعنى ذلك إخلاص العبادة لله؛ لأن الذي يعبد غيره قد توجه لغير الله وشرّك في وجهه معبوده، فالإسلام للوجه جعله سَلَماً لله، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لإخراج المسيء، ولو ترك الإشراك في وجهه فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أقام هذا مقام: فإنه سيدخل الجنة وفيه دلالة على أن سبب الجنة هو العمل الذي يستحق به الأجر عند الله؛ وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان.

وفي قوله سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى الرَّد على اليهود الذين يدّعون اختصاصهم بالله مع أنهم وغيرهم من البشر كلهم عباد لله، وهو ربهم كلهم لا فرق بينهم في ذلك، وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ مناسبة لقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ من حيث أن معناه: عبد الله مخلصاً له العبادة.

فأجر العبادة من ربه؛ لأن العبادة وإسلام الوجه له تعبير عن كونه رب العابد له وتعبير عن كون الذي أسلم وجهه لله عبداً له، فأجر العبادة من المعبود الذي هو ربه، ففي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى أنه معبوده، وفيه إشارة إلى وجه استحقاق الأجر منه، وهو أن عبادته عبادة لربه، فاستحق بها الثواب؛ لأنها حق وصواب أمره بها ربه، فآجره عليه.

وقد قدمت زيادة على هذا في مناسبة قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لعبادتهم لربهم وخوفهم من ربهم ورجائهم له، وذكرت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون:٥٧] وإفادة جملة ذلك لصلتهم بالله من حيث هو ربهم.

فتحصل من فوائد قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾:

إفادة: أن طريق الجنة هو العمل المذكور لا أماني اليهود؛ لأنهم فاقدون لهذا السبب، عادلون عن طريق الجنة الموصل إليها،

وإفادة: أن الجنة أجر على العمل من رب المسلمين له المحسنين، الذي عبدوه فاستحقوا الأجر منه بعبادتهم لربهم الذي أمرهم بعبادته، وهو يرد على اليهود والنصارى دعوى اختصاصهم بالله،

وإفادة: أن الصلة بالله من طريق الإخلاص له والإحسان، هي الصلة بالله لا الأماني.

وقوله: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أعتقد أن المعنى: أنه ليس من شأنهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ لأنهم في طريق النجاة من النار؛ لأن كل عاقل يعلم أن ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٌ﴾ فهو في طريق النجاة، وأنه لا يخاف عليه من إخلاص عبادته لله وإحسانه، فدعوى اليهود أنه لن يدخل الجنة مكابرة للعقول، وما أحسن هذه العبارة حيث لم يسند نفي الخوف إليهم؛ لأنهم وإن كانوا على طريق النجاة يكونون خائفين من ذنوبهم في الدنيا، فلم ينف عنهم أن يخافوا بل هم أكثر خوفاً لله من المجرمين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

وقد مرّ قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ مرتين، وهذه الثالثة، وقد جاءت في مواضع من القرآن، فالمقصود: أنهم لا يُخاف عليهم وإن كانوا خائفين في الدنيا والله أعلم.

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ إما أن المراد في الآخرة؛ لأنهم في الدنيا يحزنون من ذنوبهم، وإما أن المراد ـ وهو الراجح عندي ـ التعريض بأهل الباطل؛ لأنهم في بعض حالتهم يحزنون من باطلهم كما قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فالمراد: ولا هم يحزنون من طريقتهم هذه التي هي إسلام وجوههم لله كما يحزن غيرهم من طرائقهم المخالفة.

ونظير هذا: قول إبراهيم الذي حكاه الله عنه في قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢] أي أنهم هم الذي يأمنون ولا يخافون من إيمانهم وتركهم للمعاصي،وهذه حجة على قومه الذين أشركوا بالله بلا برهان، فهم أحق بالخوف من شركهم، فهكذا ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لا يحزن من أجل إسلامه وإحسانه؛ لأنه يعلم أن ذلك سبب النجاة بخلاف من أشرك وأساء، فإنه ينبغي له أن يخاف ويحزن من طريقته وربما حزن، فالحاصل: أن هذه الجملة احتجاج على اليهود والنصارى.

فإن *قيل*: إذا لم يقل في المسلمين المحسنين: لا يخافون، لئلا يوهم عدم خوفهم من ذنوبهم، فكيف قال سبحانه: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؟ ولم يقل: ولا حزن عليهم، مع أنهم يحزنون كما قال أمير المؤمنين: ((المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه)) انتهى.

فهم يحزنون لأسباب عدة، مثل غلبة الجور وظهور المنكرات، ويحزن المؤمن من ذنوبه، فكيف لم يقل: ولا حزن عليهم؟ لئلا يوهم هذا المعنى كما في ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

فالجواب: إن عدم الخوف سمة المجرمين الظلمة كما قلنا، وكذلك من سمتهم في الغالب أن لا يحزن الناس عليهم إذا ماتوا، أما المخلص المحسن فإن الناس يحزنون عليه، فلم يناسب حاله أن يقال فيه: لا حزن عليه، فكان الحزن مخالفاً للخوف؛ لأن المجرم الظالم يقال فيه: لا يخاف الله، ويقال فيه: إذا مات لا حزن عليه، والمخلص المحسن يقال فيه: يخاف الله ويُحزَن عليه إذا مات، فالمناسب في المؤمن نفي الخوف عليه لا الحزن عليه.

لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

فظهر: إتقان عبارة القرآن: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يُخاف عليهم ولا هم يحزنون من دينهم وإحسانهم كما يحزن أهل الباطل من باطلهم في بعض الحالات لو لم يكن إلاَّ عند اقتراب الأجل وحضور الموت أو أن من شأنهم أن يحزنوا، وينبغي لهم ذلك، نعم وهذا المعنى يصلح للدنيا والآخرة فلا خوف عليهم في الدنيا ولا في الآخرة ولا هم يحزنون في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد: ليسوا على طريق حق، فبالغوا وجعلوا دين الآخرين لا أصل له ولا أساس له، ومعنى هذا الكفر من كل منهما بكتاب الآخر ورسول الله إليه ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي يوجب عليهم الإيمان برسل الله وكتبه، وهو كتاب الله الذي يجب عليهم اتباعه وهو التوراة؛ لأن الفريقين يتلونها، وتسمى عند النصارى العهد القديم أو جنس الكتاب الصادق على التوراة وعلى الإنجيل.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ الذين لا يعلمون هم أهل الجاهلية الذين ليس لهم كتاب، فتجرءوا على جحد الحق بأن قالوا مثل قول اليهود والنصارى بأن قالوا: ليست النصارى أو اليهود أو كلاهما على شيء فهو مثل قولهم في جحد الحق، ويوافق هذا التفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:٤٨].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ

فثبت أنهم كفروا بموسى، وذلك يستلزم كفرهم بالتوراة، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فجعل الخلاف بين الفرق الثلاث، فأما الكفر بمحمد ص فقد وقع من الفرق الثلاث، وكان يناسبه ـ لو كان المراد ـ أن يقول: فالله يحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي لا أظلم ممن منع مساجد الله التي بنيت لذكره وشرع لعباده أن يذكروه فيها وذكر الله من العبادة التي خلقوا لها فهذه الجريمة عدوان على مساجد الله، وعلى من يريد أن يذكر الله فيها، بل وعلى ذكر الله بمنع وقوعه في المساجد، فاعتدى على حرمة مساجد الله وعلى حرمة الذكر وجمع بين الجريمتين وضم إحداهما إلى الأخرى.

قال في (الكشاف): ((﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثاني مفعولي منع؛ لأنك تقول: منعته كذا..)) إلخ.

أقول: فلهذا قلت: إن المنع هذا عدوان على مساجد الله، أعني لكون مساجد الله مفعول أول، وأن يذكر فيها اسمه مفعول ثانٍ، وهذا عام لا يختص بالفرق الثلاث، وإن كنّ سببه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ تعريض بالفرق الثلاث، فيدل على أن ذلك قد وقع منهم أو من بعضهم أن قد سعوا في خراب مساجد الله.

وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

ولعل سبب ذلك تكفير كل فرقة الفرقة الأخرى، فيؤدي ذلك إلى القتال والتسبيب لخراب المساجد بمنع أهلها منها وإهمالها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاع اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج:٤٠].

فإذا كانت الحروب قد وقعت وهي مظنة تخريب المساجد من قبل أعداء الدين، فلا موجب لتعيين الفاعلين مَن هم، وليس من واجب التفسير تعيين ما أبهم القرآن، ويكفي أن نقول ظاهر الآية التعريض بالفرق الثلاث أنه قد وقع منهن كلهن أو بعضهن منع مساجد الله، والسعي في خرابها، وظاهرها العموم لكل مساجد الله التي كانت موجودة في عصرهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ لأنهم رجس، يجب تنزيه المساجد عنهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨].

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ يستحقون الخزي في الدنيا بأي وسيلة كالطرد من المساجد ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على قبح منع المسلمين من مساجد الله، وعلى تحريم خرابها الحسيّ والحكمي، وهو منع ذكر الله فيها، وتجب إخافة من فعل ذلك، وأن يخزيهم من قدر على إخزائهم كما في الآية)) انتهى.

﴿١١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ جهة طلوع الشمس ﴿وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ جهة غروبها، يفرد وهو عبارة عن المشارق

والمغارب باختلاف الاعتبار، أعني قد يعتبر المشرق متعدداً باعتبار تعدد مطالع الشمس بتعدد منازلها، وقد تعتبر المشارق كلها مشرقاً واحداً لعدم اعتبار اختلاف المطالع، وكذلك المغرب.

والمراد: أن له تعالى أن يوجه عباده في عبادتهم حيث شاء؛ لأن الجهات كلها له، ولعل فائدة تخصيص المشرق والمغرب بالذكر أن الشمال والجنوب كان معهوداً حيث صلوا من المدينة المنورة إلى الجنوب إلى الكعبة، وإلى الشمال لغرب حين صلوا هناك إلى بيت المقدس والله أعلم، أو أن المشرق والمغرب يعم أكثر الجهات لامتداد الجهتين إلى الشمال صيفاً والجنوب شتاءً.

وقوله: ﴿تُوَلُّواْ﴾ أي توجهوا وجوهكم، وقوله: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ تعبير عن كونه يصلح قبلة تتوجهون إليه في عبادة الله، وهو من المجاز معناه: كأن الله هناك يقبل إليكم بوجهه سبحانه وتعالى، وهو منزه عن الأعضاء، وإنما المراد بيان أنه يصلح ليكون قبلة تقبل منكم الصلاة إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي واسع الرحمة لعباده كلهم، ولا تختص رحمته بأمة كـ(بني إسرائيل).

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على جواز التوجّه بالصلاة إلى أيّ جهة شاء المصلي عند التباس جهة الكعبة، والجهل بها)) انتهى.

قلت: وتدل على أن الجهات كلها تصلح أن تكون قبلة، ولا يختص بذلك بيت المقدس، فإذا شاء سبحانه وتعالى أن يوجههم إلى جهة صارت قبلة، فالآية كالمقدمة لما يأتي في القبلة.

(١١٦) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ يظهر أن قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ الضمير فيه راجع إلى الفرق الثلاث: اليهود، والنصارى، والذين لا يعلمون، و﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ ردّ لكلامهم، وتنزيه لله سبحانه عن الولد.

وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون مطيعون، فعيسى وعزير والملائكة كلهم عباد لله منقادون يقضي فيهم ما يشاء ويحكم ما يريد، ليس لهم من الأمر شيء.

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهما دليل على أنه تعالى قادر على إبداع ما يشاء وخلقه قبل أن يوجد له مثل كما بدع آدم من التراب، فكيف لا يقدر على خلق عيسى من دون أب ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق حتى كأنه إنما يأمر الشيء أن يكون، فإذا أمره فهو يكون.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من كفار العرب ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جحداً بالآيات، وزعماً أن آيات الله ليست آيات ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الكفار كقوم هود في قولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] وكل أمة كفرت برسولها فهي مكذبة بآيات الله ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يطالبون أن يكلمهم الله استكباراً وتعنتاً ويكذبون بآيات الله.

﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كلها تكره الحق وتميل إلى الباطل وتتكبر ولا تؤمن بآيات الله ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ لا وجه له، بل هو أبطل الباطل؛ لأن الله جعل الآيات وجعلها بيّنات لا تخفى على من يريد الحق ومن شأنه أن يوقن لوجود الآيات البينات، أما من لا يوقن مع وجود الآيات البينات فالحجة قائمة عليه؛ لأن المانع من إيقانه هو إعراضه وكراهته للحق وشغل قلبه عن النظر في الآيات بوسواس الشيطان والكبر والحسد، وغير ذلك من الموانع التي هي من عنده، ويجدها من نفسه.

أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ في قوله: ﴿إِنَّآ﴾ بكلمة التعظيم، إشارة إلى أن ذا الجلال والإكرام العزيز الحكيم العلي العظيم أرسلك ﴿بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ فما أقبح طريقة الكفار المحاربين للدين من اليهود والنصارى، والذين لا يعلمون يحاربون هذه الرسالة التي تولاها ملك الملوك علام الغيوب أحكم الحاكمين مع أنها رسالة بالحق، ولا يرسل سبحانه إلاَّ بالحق، ومع أنها مهمة لمصلحة البشرية بل ضرورية لنجاة من يريد النجاة من النار وسعادة من يريد السعادة الدائمة، فما أقبح التكذيب بها، وما أقبح الجدال في دلائلها، وما أقبح معارضتها بالمكر، وما أقبح الإعراض عنها.

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ الذين لم يقبلوا منك ولم يهتدوا بهداك وتمردوا وأصروا واستكبروا، فهم مخذولون لا يرجعون إلى الهدى، ولا يزالون على طريق الجحيم حتى صار اسمهم ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [المائدة:٩٩] ليس عليك هداهم، فلست مسئولا عنهم، وفي قراءة منسوبة إلى نافع: ﴿وَلَا تَسۡأَل عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بالجزم و(فتح التاء) ومعناها إما الأمر بالإعراض عنهم؛ لأن من عادة المعرض أن لا يسأل عمّن أراد الإعراض عنه؛ لأنه لا يبالي به كيف كانت حالته، وإما على معنى لا تسأل ربك عنهم لماذا يعذبهم؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل، وإما لا تسأل ربك هل يمكن أن يعفو عنهم أو نحو هذا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] وإما لا تسأل عنهم، أي عن العذاب الذي يصيرون إليه تعظيم للعذاب وتعبير عن شدته على السمع. كما قال الهبل:

سماعك بالنار يا ذا الحجا ... شديد شديد شديد شديد

فكيف إذا أنت عاينتها ... فكيف الوقوع فكيف الخلود

ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ

وحكى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى × : أن القراءة ـ بضم التاء، وضم اللام ـ لم يذكر غيرها. قال الشرفي: وكلام أبي الفتح الديلمي × مثل هذا، وهي قراءة جميع القراء، إلاَّ نافعاً)) انتهى.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ لأنهم متعصبون لدينهم وغاضبون مما جئت به في شأنهم وحاسدون لك على الرسالة واتباع أمر الله ومكانتك عند الله.

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ وقد هداني إلى صراط مستقيم، فلن أتبع ملتكم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ لأنهم في كفرهم إنما هم متبعون للأهواء تقودهم إلى الكفر والأباطيل والعمل بالمنسوخ من شريعتهم الذي صار بالنسخ قد انتهى حكمه وصار التمسك به تعصباً، إنما هو من الأهواء، وقد خرج عن كونه من الدين ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ الذي أنزله الله إليك وهداك به وبين لك أنهم على ضلال مبين.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولى رعايتك ويعصمك من خذلان الله لك بشفاعته ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عذاب الله، وليس معنى هذا أن رسول الله ص مظنة اتباعه لأهوائهم أو قريب من ذلك، ولكن هذا تعبد كنهيه عن سائر المنكرات التي لا تقع منه، ويثاب على تركها، وفيه دلالة واضحة على أن اليهود والنصارى ما لهم من الله من ولي ولا نصير.

﴿١٢١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ علمناهم التوراة ورزقناهم فهمها والاهتداء بهداها فهم ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ لا يحرفون ولا يبدلون لسلامتهم من التعصب والحسد ورغبتهم في الحق.

إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالذي جاءك من الحق؛ لأن غرضهم اتباع الحق، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت:٤٧] وذلك لأن التوراة تدعو إلى الإيمان بما أنزل على محمد، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] فالذين أوتوا الكتاب قسمان:

قسم كما قال تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] فهؤلاء لا يتلونه حق تلاوته.

وقسم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ..﴾ الآيات [القصص:٥٢-٥٣].

وعلى هذا: فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ الذين علمناهم وفهمناهم، فخرج عن ذلك الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ فلا يقال فيهم: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بهذا المعنى وإن كانوا منسوبين إلى الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كالتخصيص لما سبق في اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٣] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي من يكفر من اليهود والنصارى والذين لا يعلمون وغيرهم بالذي جاءك من الحق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأن التعب في التدين بلا فائدة خسران، بل ويؤدي إلى العذاب الدائم، فهو الخسران الشديد.

﴿١٢٢﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في النعم كقول موسى لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠]

تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن

والمراد بتذكيرهم نعم الله عليهم، حثهم على الشكر، وتحذيرهم من كفر النعم الذي من أعظمه الكفر بما أنزل الله على محمد والتكذيب بآيات الله.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ تحتاجون إلى أن تتقوه وهو يوم القيامة، ولا بديل ينجيكم منه؛ لأنه يوم ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ لا تؤدّي عنها حقاً ولا تقضى عنها ديناً ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ يعدلها، فتفتدي به من مال، أو ولد، أو أي شيء.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ ليعفى عنها ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم على أنهم الجمع الكبير الجم الغفير، فلا يُفيدهم ناصر ينصرهم، وهذه الآية الكريمة تكذّب أمانيهم وتبين أنها غرور خادع؛ لأنها قد بينت أنه لا ينجي المكلف من عذاب يوم القيامة إلاَّ التقوى، فعليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله محمد ص وما أوتي من القرآن والسنة والآيات.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ اختبره بهن، أي شرع له خصالاً أو أمره بخصال ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتم ما ذكر له في الكلمات، فرجع الضمير إلى الكلمات؛ لكونه أتم المذكور فيهن، كقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾ ونظيره قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد: أنه × قام بما شرع له في الكلمات المذكورة كاملاً بلا تقصير ولا بخس، فالعمل كامل والنية خالصة والذهن حاضر، والخشوع كامل،

وعلى الجملة قام به على الوجه المشروع بلا تقصير في ذات ولا صفة، وذلك لقوة إيمانه ويقينه وصبره.

ويحتمل: أن هذا الابتلاء كان قبل النبوة والرسالة، فكان إتمامهن سبباً للرسالة والإمامة لمن في عصره ومن بعده، ومن يدعي أن هذا الابتلاء كان بعد الرسالة، فليس له دليل.

ولا يشكل قول القائل: إن هذا الإبتلاء لا يكون إلاَّ بوحي، فكيف يكون قبل النبوة؛ لأنا نقول: ما المانع أنه كان × محدَّثاً قبل النبوّة تهيئة للنبوة كما كانت مريم بنت عمران وأم موسى، ولو سلمنا أنه لا يكون قبل النبوة فلا دليل على تأخره، ومن الجائز أنه كان في أول النبوة ثم ترتبت الرسالة على إتمام الكلمات بعد النبوة، أي أنه كان نبياً فابتلي بكلمات فأتمهن، فجعل رسولاً وإماماً للأجيال.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فإتمامه لما ابتلي به كان سبباً لجعله للناس إماماً، وقد قيل: إن فيه دلالة على أن الإمامة أعظم من النبوة؛ لأنه كان نبياً، ثم بعد ذلك صار إماماً عندهم، ونقول: لا دلالة على ذلك؛ لأن الإمامة رتبت على إتمامه ما ابتلي به لا على النبوة، والنبوة تكون لمن اختاره الله لها، ولو لم يكن رسولاً، ومن الجائز أن يكون الله اختار إبراهيم للنبوة لكونه أهلاً بصلاحه العقلي، وكونه شاكراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

واختاره للرسالة بإتمامه ما أمر به، فكانت النبوة أولاً لنفسه والإمامة من أجل الناس ولعل سبب تقديم النبوة في حقه أنه لم يكن لديه كتاب ولا أثر من نبي كان قبله، فلم يكن بد من تقديم نبوته ليعرف ما يخصه من التكليف

فتأخرت الإمامة عنها لا لكونها أعظم من حيث هي إمامة، ولا لكونها درجة أرفع، بل لكون الإمامة تتوقف على العلم والصبر واليقين بآيات الله، والنبوة لا تتوقف على العلم بالشرعيات؛ لأن ذلك دور، إذا لم يكن عنده كتاب أو أثر من نبي قبله كآدم × .

فإن قيل: فقد دل ذلك على أن الأهلية للإمامة أعظم من الأهلية للنبوة؛ لأن الأهلية للإمامة توقفت على العلم بالشرعيات بخلاف النبوة؟

قلنا: لا دلالة على ذلك؛ لأن الأهلية للنبوة وإن لم تتوقف على العلم بالشرعيات، فالنبوة تتوقف على كمال عقلي واستعداد فائق، فلا يبعد أن يكون بعض من يصلح للإمامة لا يصح للنبوة، اللهم إلاَّ أن يراد الإمامة العامة، كإمامة إبراهيم الخليل وإمامة محمد ص الإمامة التي هي لازم الرسالة، كما قال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] وغير ذلك فهي إمامة الرسول فيما أرسل به وكونه متبوعاً فيه لكل من أرسل إليهم وكل من أمر باتباعه من الأجيال المتتابعة، فهي متوقفة على النبوة، وهي أعظم درجة من أجل الرسالة من حيث أمر أن يبلغ ويدعو إلى طاعته من أرسل إليهم ويقوم بتكاليف الرسالة الشاقة التي ذكرت في القرآن ودل على عظمها وعظم مشقتها، ولا تكون إلاَّ لذي أهلية خاصة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

والحاصل: أن الإمامة مُختلِفة، وفضلها مختلف، وعظم إمامة إبراهيم × لا يستلزم أن تكون كل إمامة مثل إمامة إبراهيم.

وحاصل الجواب: أنا لا نسلم ترتب إمامة إبراهيم على نبوته، بل على طاعته، فلا نسلم أن الإمامة أفضل، وأنا لو سلمنا أن إمامته أفضل من نبوته فلم نسلم أن كل إمامة مثلها، وقد قال تعالى في (بني إسرائيل): ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] فلم يرتب إمامتهم على نبوة، وإنما رتبها على صبرهم ويقينهم بآيات الله اليقين المستمر.

وقد *قيل*: إن يقينهم كيقين إبراهيم الخليل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

والجواب: أن يقينهم بآيات الله أنها دليل على ما هي دليل عليه، وهو يصح أن يوقنوا بها جملة، ولا يتوقف على أن يريهم الله ملكوت السموات والأرض كما أرى إبراهيم × ، إنما يتوقف على العقل الكامل والإيمان الراسخ والنظر والتفكر مع أن الملكوت المُلك ـ بضم الميم ـ، وإراءتُه إعلامه، وهو يحصل كذلك بالنظر المؤدي إلى العلم بأن الله رب كل شيء، فله الأمر، ومع أن يقين إبراهيم مطلق ويقين أئمة بني إسرائيل مقيد بالآيات، فلا وجه للتسوية بين يقين إبراهيم الخليل × ويقين سائر الأئمة، وعلم ذلك عند الله تعالى.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل أئمة بقرينة قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالجمع يدل على أن المطلوب جمع، وهو × أراد أئمةً للناس كافة لمن في عصره ولمن بعده من الأجيال كما أن إبراهيم × إمام كذلك، والكلام في سياق الاحتجاج على أهل الكتاب الكافرين بمحمد ص، فظهر أنه المقصود بإيراد القصة؛ لأنه رسول إلى العالمين ص.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أن قد أجاب دعوة إبراهيم وزاده فائدة؛ أنه لن ينال عَهْدُه بالإمامة ظالماً، فليس هـذا ردّاً علـى إبـراهيم × ، ولا تخصيصاً لدعوته؛ لأنه قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فـأتى بــ﴿مِن﴾ الـتي للتبعيض، فليس فيها عموم وليس في كلامه تعرض لكونه ظالماً أو غير ظالم، وفائدة هذه:

أولاً: الرد على من سيكفر ويقول: ﴿أَهَـؤُلاَءِ مَـنَّ اللَّـهُ عَلَـيْهِمْ مِـنْ بَيْنِنَـا﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُـلُ اللَّـهِ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ثانياً: الرد على من ادعى النبوة من الظـالمين كمسـيلمة الكـذاب لتكـون معرفة ظلمه كافية لإبطال دعواه.

ثالثاً: الرد على من ادعى الإمامة الشرعية وهو ظالم، فيكون ظلمه دلـيلاً على كذب دعواه وهو وإن لم يكن السياق فيه فقد دخل في عمـوم عهـدي، وعموم الظالمين، والعام لا يقصر على سببه، وقد قيل: إن هـذا دليـل علـى عصمة الإمام؛ لأن من عصى فهو ظالم، ولو كان قد تاب.

قلنا: التائب قد خرج عن اسم الظلم؛ لأن توبتـه قـد محـت ذنبـه وصـار مستحقاً للمدح غير مستحق للذم، وتسميته ظالماً ذم لـه بعـد خروجـه عـن استحقاق الذم، وصار مؤمناً، ومحسناً ضد الظالم وضد المسـيء، قـال تعـالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّـا كَسَـبُوا وَهُـوَ وَاقِـعٌ بِهِـمْ وَالَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ [الشورى:٢٢].

فهل *تقولون*: أن التائب هو من النوع الأول؟ أم من النوع الثاني؟

فإن *قلتم*: من الأول، خالفتم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥] وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠] وعلى هذا اللغة العربية، فمن أساء سمي مسيئاً حتى يرجع ويتوب من إساءته ويصلح ما أفسد ويحسن، ومتى صار محسناً سمي محسناً ولا ينظر إلى إساءته من قبل.

وكذلك من أحسن يسمى محسناً، ومتى تحول عن طريقته وصار من المفسدين لم يسم محسناً نظراً لإحسانه السابق قبل الإساءة، فدعواكم أن التائب ظالم غير مسلمة ولا حجة لكم إلاَّ استصحاب اسمه قبل التوبة، وهو استصحاب باطل؛ لأن التوبة قد محت ظلمه واختلفت حاله فهو كاستصحاب اسم الكفر لمن قد أسلم، واسم الإسلام لمن قد أشرك، واستصحاب اسم المريض لمن قد عوفي وصار صحيحاً وغير ذلك.

فاللغة لا تثبت لكم هذا الاستصحاب، وهو دعوى على اللغة لا تسمع، فلا نسلم أن التائب من ظلمه المبدل حسناً بعد سوء الذي يبدل الله سيئاته حسنات ظالم داخل في عموم: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعلى هذا فيكفي ظهور عصمته، أي هدايته وتوفيقه من بعد التوبة والإصلاح، فإن قالوا: لا يخلو إما أن يكون إبراهيم طلب إماماً ظالماً أو لم يطلبه الأول باطل بالاتفاق. والثاني: إما أن يكون طلب إماماً معصوماً أو لم يطلبه، الأول هو ما نريد.

وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابة مطابقة، والثاني أن يكون طلب إماماً معصوماً أو غير معصوم، فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، وقصر للإجابة على المعصوم.

والجواب: نختار الثاني في أول قسمة، فلم يطلب ظالماً، ونختار الثاني في القسمة الثانية فلم يطلب في هذا الدعاء معصوماً، فلا ذكر للعصمة. وقولكم: فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، دعوى لا دليل عليها، بل هو إجابة مطابقة.

فإن *قالوا*: إذا جعلناها إجابة مطابقة بطلت فائدتها؛ لأنه إذا طلب إماماً غير ظالم، وأجيب بأنه ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يكن الجواب رداً على إبراهيم ولا تخصيصاً لكلامه.

قلنا: لا موجب لجعل الجواب ردّاً على إبراهيم، ولا لجعله تخصيصاً لدعوته، فأما الفائدة فلم تقصر على ذلك، ويكفي في الفائدة التصريح بما لم يذكره إبراهيم، وكون التصريح من مالك الملك.

فصل

وقد قيل: إن هذه الآية دليل على أنه لا بد أن يكون الإمام منصوصاً عليه بعينه، ووجه الدلالة: أن الآية قد دلت على أن الإمام لا يكون ظالماً من غير فرق بين الظالم في الظاهر والظالم في الباطن، فدلت على أنه لا بد أن يكون منصوصاً عليه، وإلا جاز أن يكون ظالماً في الباطن.

قلنا: أما الرسول فلا بد من أن يصدقه الله بآية خارقة لا لأجل هذه الآية الدالة على أن الرسول لا يكون ظالماً، وذلك لأن ظهور كونه غير ظالم، وعدم العلم بظلم منه باطن لا يكفي في تصحيح دعواه الرسالة، ولم يثبت دليل عام يقتضي الاكتفاء بظهور عصمته.

وأما الإمام من بعد علي والحسنين فإنه يكفي ظهور فضله، وظهور صلاح ظاهره وباطنه، ولا نكلف علم باطنه؛ لأن الآية لم تشترط ثبوت العصمة إنما نفت العهد للظالم ولم تنف العهد لمن جوزنا أنه في الباطن ظالم

مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ

ولا دلت على وجوب العمل بهذا التجويز ولأنه لا يثبت حكم المعصية إلاَّ بعد ثبوتها، وإذا لم تثبت وجب العمل على حسن الظن، لقوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢].

والحاصل: أن الآية إنما دلت على أن الظلم مانع، ومجرد تجويز وجود المانع لا حكم له، ألا ترى أن إمام الصلاة يجوز أنه جنب في الباطن ولا حكم لهذا التجويز إذا لم يظهر أنه جنب.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يثوبون إليه، أي يرجعون؛ لأنهم إليه يترددون للحج وللعمرة رجاء الثواب، وفوائد الحج والعمرة ﴿وَ﴾ جعلنا البيت ﴿أَمْنًا﴾ لمن دخله، بل ولمن دخل حرمه.

﴿وَاتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي موضع قيامه على الصخرة عند البيت حيث هناك أَثَرَ قدميه الشريفتين ﴿مُصَلًّى﴾ يصلون فيه تبركاً به أو لنيل فضل الصلاة فيه، قال الشرفي في (المصابيح): ((معنى ﴿اتَّخَذُواْ﴾ أي جَعَلُوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقامه فهو في الصخرة بمكة عند البيت)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ قرئ بكسر (الخاء) ومعناه: وقلنا: اتخذوا، وبفتح (الخاء) على الخبر، بأنهم اتخذوه.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ البيت: هو الكعبة، وتطهيره للمذكورين دلالة على أنه سيكون للطواف به والصلاة والعكوف، وهو اللبث في المسجد الحرام للعبادة، فأمر إبراهيم وإسماعيل | بما ذكر إعداداً له.

ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على وجوب طهارة البيت من الأرجاس، ومعاصي الناس)) انتهى.

قلت: وهذه الآية تشبه الآية من (سورة آل عمران): ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ..﴾ الآية [٩٧] والسياق في (بني إسرائيل) في الآيتين، فهما رد عليهم من حيث دلتا على ثبوت الدين من عهد إبراهيم وإسماعيل قبل أن تنزل التوراة والإنجيل، فيدل ذلك على بطلان تعصبهم للتوراة والإنجيل، وجعلها ضرورية للدين؛ لأن الدين قد استقام بالإسلام لله وحده والعبادة المذكورة لله، ولم يشترط فيه ما اختصت به التوراة والإنجيل أو اليهودية والنصرانية كالسبت واستقبال بيت المقدس.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ أي الحرم: حرم الكعبة، أو الإشارة إليه وإلى ما حوله ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أراد × : أن يتمكنوا من البقاء حول البيت ليقيموا الصلاة ولا يضطرهم الجوع إلى المغادرة لذلك الوادي الذي ليس بذي زرع.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فالرزق في هذه الدنيا للمؤمن والكافر، وقد أجيبت دعوة إبراهيم، وصار في مكة المركز الديني مركز بني إسماعيل على دين إبراهيم وإسماعيل، خلاف مركز بني إسرائيل، فلم تكن اليهودية ولا النصرانية من ضروريات دين الله.

تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن

وأعتقد أن دعوة إبراهيم ربه أن يجعل ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ معناها: طلب جعله كذلك بقدرة الله وفعله، وإعداد قلوب الناس لذلك لا مجرد الحكم التشريعي.. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:٥٧] فهو أمرٌ استمر في عهد الجاهلية حتى في عهد الشرك.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ ظاهره: أنه تعالى يلجيه إلى عذاب النار كإلجاء السجين لدخول السجن، وهو السّوق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١] فيظهر أنهم يمشون إلى جهنم لعنف السوق وهيبة السائق، ولعل من الإضطرار ما روي فيه عن النبي ص ما معناه: أنه يبلغ بهم التوبيخ والتخزية على رؤوس الأشهاد أن يتمنوا أنهم سورع بهم إلى النار.

﴿١٢٧-١٢٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ أي يبنيان أساس البيت رافعين له، أو كان أصل القواعد موجوداً فزادا عليه بناءً مجانساً لها قوياً كما تبنى القواعد أي أسس البناء، فصار هذا البناء رفعاً للقواعد، ولعل السبب كونه قريباً من مجرى السيل فرفعا أساسه لئلا يدخله السيل داعيين ربهما أدعية:

الدعاء الأول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ وتقبُّل العمل الصالح أن يجعله تعالى مقرباً إليه سبباً لثوابه.

الدعاء الثاني: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ أي مسلمَين وجوهنا لك، أي مخلصَين لك العبادة، ويحتمل مسلمَين أنفسَنا لك، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وإسلام النفس أبلغ من إسلام الوجه؛ لأن إسلام النفس لله شأن الخواص الذين لم يبق لهم في الحياة الدنيا غرض نفسي غير عبادة الله وذكره والتقرب إليه بكل وسيلة من الجهاد وغيره، والاشتغال بذلك عن كل غرض نفسي حتى المباحات يصير غرضهم فيها الاستعانة على العبادة أو نيتهم فيها تصيّرها قربة، وحتى أنهم يختارون الأشق على النفس إذا كان أفضل عند الله، وذلك كله لأنهم جعلوا أنفسهم خالصة لله، فسلموها له هذا التسليم ولا إشكال في هذا؛ لأنهم باعوا أنفسهم من الله وطلقوا الدنيا، فلا يقال: ما معنى إسلام النفس لله وهي له وحده لا شريك، سواء أسلمها أم لم يسلمها، فقد صح بيعها من الله، وهي له سبحانه من قبل البيع.

﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ الاحتمال فيه كالاحتمال الأول، وقد روي عن الإمام زيد بن علي إ أنه قال: ((نحن الأمة المسلمة)) انتهى.

فهو يقوي احتمال مسلمة أنفسها لك، فتكون خاصة برسول الله ص وبذوي القربى، الذين باعوا أنفسهم من الله، وأسلموها له كما أسلم إبراهيم وإسماعيل، وبالخُلَّص الذين ذكر الله تعالى وصفهم بعد آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى..﴾ [التوبة:١١١] فقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢] فدل على جمعهم هذه الصفات مع بيعهم أنفسهم من الله ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ علّمنا عبادتنا لك حول هذا البيت، أي مناسك الحج والعمرة ونحوهما ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تب علينا، والتوبة من الله على عباده الرجوع عليهم برحمته وألطافه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨] وهو أعم من قبول التوبة والهداية لها.

الدعاء الثالث: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ أي في ذريتنا، وهم ذرية إسماعيل؛ لأن ذريته ذرية لأبيه إبراهيم إ ﴿رَسُولاً مِّنۡهُمۡ﴾ فهو من ذرية إسماعيل ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ الدالة عليك، وعلى أنه رسول الله إليهم، وعلى اليوم الآخر وغير ذلك، ليعلموا أنه رسول الله ويؤمنوا به وبما يتلو عليهم ويعلمهم الكتاب فيحفظوه ويعلموا معانيه ويعلمهم الحكمة ليكونوا حكماء في منطقهم وسلوكهم على طريق الصواب وحسن الرأي ورجاحة العقل، وذلك يتوقف على أن يكونوا علماء؛ لأن الجاهل لا يكون حكيماً.

﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ يصلحهم، وقد فسر بأن يطهرهم، ولم يظهر لي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] فدل على التغاير، فالتزكية بما يكون من الرسول من أسباب صلاحهم من التعليم والمواعظ والترغيب وما يكون لحاضريه ومشاهدي سيرته من بركات النبوة وما يكون لمن سمع بذلك من التأسي به وغير ذلك.

وأيضاً يكون إصلاحهم بالدعوة وظهور الآيات والمعجزات على يديه والبركات الخارقة، وأيضاً بما يكون من جهاده لأعداء الدين الذين يفتنون من أسلم ويدعون إلى الباطل والشرك حتى ترتفع راية الحق ويظهر أمر الله وهم كارهون، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، فقوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ فيه طلب ما يحصل به العلم.

مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فيه طلب ما يُحَصِّل به الرسول الإيمان والعمل الصالح والتقوى في الأمة المذكورة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن عزتك أن تظهر دينك وتعلي كلمتك، ومن حكمتك أن لا تهمل عبادك بلا بشير ولا نذير، فهذه الدعوات تفيد: أنها ستكون أمة مسلمة، رسولها منها ليس من بني إسرائيل، يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فهم على أساس مستقل وصراط مستقيم لا يحتاجون إلى اليهودية ولا النصرانية، قد كفاهم كتابهم ورسولهم واستغنوا بهما عن التوراة والإنجيل، وهذا يبطل تعصب اليهود والنصارى لملتهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ يقال: رغب عن الشيء إذا لم يُردْه ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ دينه الذي هو الإسلام لله ورفض الأديان المخالفة للتوحيد، والسفه: خفة العقل، ولعله عدي إلى نفسه لتضمينه معنى خسر أو أضاع أو أهمل أو أهان أو نحو ذلك مما هو شأن السفيه، ويفهم من السياق.

والمعنى: أيّ عاقل يرغب عن ملة إبراهيم؟!! كأن ذلك لا يتصور إلاَّ ممن سفه نفسه وذلك لوضوح حجته في أنه إذا عبد الله ولم يلبس إيمانه بمعصية فهو أحق بالأمن ممن عبد غير الله بدون برهان من الله، فعبادة الله لا جدال فيها؛ لأنه الخالق الرازق، وترك الشرك لا ينبغي أن يكون فيه جدال؛ لأنه مجرد خرافة وأسماء يسميها الجاهلون، ليس فيه إذن من الله ولا أي حجة من العقل، فملة إبراهيم هي النهج الواضح والصراط المستقيم، فاتباعها مقتضى العقل، والعدول عنها علامة السفه.

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾ الاصطفاء: اختيار صفوة الشيء وأفضله ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ للنبوة والرسالة، وما كان معها من مقاومة الشرك والعمل لإعلاء كلمة الله وتمكين دين الله في الأرض، فدينه دين الله الذي اصطفاه لعباده.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فله ثوابه وكرامته عند الله؛ لأنه من الصالحين، وفيه دلالة على أن سبب الثواب هو الصلاح لا ما يمني أهل الكتاب أنفسهم، وفي الآية دلالة على أن الدين هو عبادة الله الخالصة له؛ لأن هذا دينه، فلا حكم لصورة من صور العبادة إلاَّ لكونها عبادة لله خالصة، فمتى خرجت عن ذلك بنسخ أو رياء أو نحوه فليست من دين إبراهيم؛ لأنها خرجت عن كونها عبادة لله خالصة، ودين إبراهيم العبادة الخالصة، وقوالب العبادة غير مقصودة لذاتها في دينه × .

﴿١٣١﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾ وجهك لربك ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الذي يجب على العالمين أن يسلموا له وجوههم؛ لأنه ربهم المالك لهم، المستحق لأن يعبدوه وحده، ولعل هذا القول كان أول نبوته، كما قال لموسى في أول ما أوحى إليه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤].

﴿١٣٢﴾ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾وقُرئ: ﴿وَأَوْصَى﴾ والمراد: أنه أوصى بهذه الكلمة التي قال له ربه ﴿وَيَعۡقُوبُ﴾ أوصى بها بنيه، قائلين لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي اختاره لكم من حيث هو خير الأديان ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لله وجوهكم، لا تشركون به شيئاً، فأهل الكتاب قد عدلوا عن وصية آبائهم حين أشركوا عزيراً وعيسى وأحبارهم ورهبانهم.

يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ

﴿١٣٣﴾ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي بل أكنتم شهداء، ومعنى الإضراب الانتقال من حجة إلى أعظم منها، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤] وفي هذه الآية دلالة على شدة اهتمام يعقوب بعبادة الله وحده وشدة خوفه على بنيه من الشرك حيث أقبل عليهم ليأخذ منهم الوعد بالثبات على التوحيد، وهو في حال حضور الموت له.

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وجوهنا لا نعبد غيره، فنحن على هذا الدين الذي ورثناه منك وورثته من آبائك وورثوه من إبراهيم، لا نعدل عن دين آبائنا الذي توارثوه، الذي هو التوحيد، فقد طمئنوا آباءهم بإفهامه أن تمسكهم بالتوحيد كالأمر الطبيعي لهم؛ لأن من طبع الخلف الميل النفسي إلى طريق السلف، فكيف يعدلون عنه وسلفهم إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿١٣٤﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الإشارة إلى إبراهيم ويعقوب، وأبناء إبراهيم عليهم السلام، ويحتمل أن أبناء يعقوب داخلون فيها ﴿أُمَّةٌ﴾ أهل دين واحد. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ليس لكم من عملهم شيء ولا لهم من عملكم شيء ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨] ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ فيظهر: أن المراد به: أن يقول لأهل الكتاب: لا سبيل لكم إلى معرفة ما كانوا عليه إلاَّ الأخبار، وخبر الله عنهم أصدق الأخبار.

وأما قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ففائدته ـ والله أعلم ـ قطع الأماني ورجاء أنهم سينفعونكم بشفاعة أو يهب الله مسيئكم لهم فيعفو عنه لأجل تلك الأمة، وذلك أنهم إنما عملهم لهم وحدهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فلعل المراد به: لستم مسئولين عما كانوا يعملون، والمهم لكم: أن تتبعوا الرسول، وما أنزل إليه من الله الذي أنزل هذا القرآن ـ والله أعلم.

﴿١٣٥﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ ﴿أَوْ﴾ ليست للتخيير، وإنما هي للترديد بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] وقول الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وذلك أن من طلب منه أن يكون يهودياً وطلبه آخرون أن يكون نصرانياً، فمجموع الطلبين يتضمن: أن يكون على إحدى الملتين، من حيث أنه لا يمكن الجمع بينهما، وكونه على إحدى الملتين إجابة لأحد الطلبين، فقد طلب منه اليهود أن يكون على أحدهما؛ وهو اليهودية، وطلبه النصارى أن يكون على أحدهما ؛ وهو النصرانية، فمجموع الطلبين لإحدى الملتين التي هي اليهودية أو النصرانية.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي بل اتبعوا ملة إبراهيم؛ لأن قولهم: ﴿كونوا هوداً أو نصارى﴾ يفهم منه اتباع دينهم كأنهم قالوا: اتبعوا ديننا، فجوابه: بل نتبع، أو بل اتبعوا ملة إبراهيم ﴿حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تكررت هذه الكلمة الكريمة، ففي (سورة آل عمران): ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٩٥] وفي (سورة الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٦١] وفي (سورة النحل): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٢٠].

وفي (سورة آل عمران) ـ أيضاً ـ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٦٧] وفي (سورة الأنعام) ـ أيضاً ـ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٧٩] وفي (سورة النحل) ـ أيضاً ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٢٣] هذا كله في إبراهيم × .

وفي (سورة الحج): ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [آية:٣٠-٣١] وفي (سورة لم يكن): ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [آية:٥].

وقد قيل في تفسير (الحنيف): أنه من الحَنَفِ الذي هو الميل في القدم، وهذا عندي بعيد؛ لأن الإشتقاق من العيوب يكون على وزن أفعل مثل: أحنف، أعرج، أعور، أعمى، أصم.. إلى غير ذلك، ولأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هو معنى العدول عن أديان الشرك، فيكون ذكر الميل فضلة، وهو بعيد في القرآن الحكيم.

ولأن الوصف بالميل إذا أطلق كان ذماً نحو ﴿فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء:١٢٩] ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] فكيف يستعمل الوصف بالحنف بمعنى المائل، ولا يقيد بأن يقول عن الباطل أو نحوه؟ فهذا لا يليق بكتاب الله الذي هو أحسن الحديث لفظاً ومعنى، فلا يليق به استعمال العبارة الناقصة؛ لأن نقصها خلل في الفصاحة وإن كان المراد صحيحاً، كقول الشاعر:

والعيش خير في ظلال النـ ـوك ممن عاش كداً

أي العيش منها في ظلال الحماقة خير ممن عاش كدّاً في ظلال العقل، فكيف إذا كان نقصها يوهم المعنى الفاسد، وقد قيل في معاني (الحنيف) غير ذلك، وأحسن ما قيل في ذلك أنه: الطائع المستقيم الخاشع.

وفي كتاب (الدليل الكبير) أول كتاب من مجموع القاسم ×: ((والحنيف فهو: المحب الخاشع)) انتهى. أفاده القاسم × في تفسير (سورة لم يكن).

وقال الشرفي في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣٠-٣١]: ((ومعنى قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ خاشعين لله ثابتين على دينه، وقد ذكر المعنى الذي هو مائلين، لكن الراجح الذي أفاده القاسم × كما ذكرت.

هذا في وصف إبراهيم × ، فأما من بعده، فيحتمل أنه الخاشع الثابت كما هو الظاهر في قوله تعالى في أهل الكتاب والمشركين: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥] من أجل قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لأنه يغني عن وصف العبادة بكونها على ملة إبراهيم، فأما الخشوع مع الإخلاص فهو مناسب، وكذا في قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ لأنه أنسب لكلمة: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ

ويحتمل: ما كان في كلام الجاهلية من كلامهم أنهم أرادوا به دين إبراهيم لكون إبراهيم كان حنيفاً، فحفظوا الاسم فجعلوا الاسم لمن كان على دينه بزعمهم أنه على دينه، وهذا لا ينافي المعنى الأصلي لوصف إبراهيم × أنه كان حنيفاً. واعتقاد الجاهلية أن من اختتن وحج البيت الحرام حنيفٌ؛ لأنهم لم يتمسكوا من دين إبراهيم إلاَّ بالختان والحج، وقولهم ـ مع كونهم يعبدون الأوثان ـ : نحن حنفاء على دين إبراهيم، لعل ذلك الاعتقاد والقول هو سبب استمرار قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ مقروناً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ليردّ عليهم باطلهم وانتسابهم كذباً إلى دين إبراهيم.

﴿١٣٦﴾ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآن والسنة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أسباط إبراهيم × ، أي أبناء بنيه أو أسباط المذكورين.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وهو التوراة؛ لأنها كانت لهما، والإنجيل وغير ذلك ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ آمنا بذلك كله خصوصاً وعموماً ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ بل نؤمن أن دينهم واحد هو الإسلام لله وأنهم كلهم على الحق وأنهم كلهم مؤمنون برسل الله كلهم ولا يكفر نبي بنبي.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ وجوهَنا، نعبده ولا نعبد غيره، وهذا ردّ على اليهود والنصارى القائلين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فديننا الإيمان بالله ورسله، وبما أوتي النبيئون من ربهم، ولا شك أن ذلك كله حق؛ لأن القرآن قد جاء به وأثبت نبوة موسى وعيسى، وصدْق التوراة والإنجيل.

فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا

فنحن نصدق ما صدق الله ورسوله ص، ونحن لله مسلمون وجوهنا لا نعبد غيره، بل نعبد الله وحده، فأي عيب في ديننا ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٥٩].

﴿١٣٧﴾ ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ أي أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا..﴾ إلخ، ما ذكر في الآية ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ إلى الحق.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن ذلك وتركوه وقالوا نؤمن بما أنزل علينا، نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ ليسوا طالبين للحق ولا هم أهل إنصاف إنما يريدون الخلاف ومجانبة الحق.

وقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ لو كان المعنى المقصود ومفهوم اللفظ: فإن آمنوا بالله وما أنزل لقيل فإن آمنوا بمن آمنتم به على طريقة التغليب، فإما أن يكون المعنى بمثل الله ومثل ما أنزل إليكم، فلا يصح.

فالراجح: أن المراد: فإن آمنوا بأن قالوا مثل القول هذا الذي عبرتم به عن إيمانكم، وليس المراد مجرد القول بدون الإيمان بالقلب؛ لأن قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ..﴾ إلخ، المراد القول المقبول المطابق لما في القلب، فإيمانهم بقول مثله لا يكون مثله، إلاَّ إذا طابق ما في القلب، والمراد بالمماثلة أن يقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم.. إلى آخر الآية.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يخفي كل منكم ومنهم وما يعلن، ومعنى (يكفيكهم) ينجيك منهم، ويتولى دفعهم عنك ودفع شقاقهم.

فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ

﴿١٣٨﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ التي جعلها لنا نصطبغ بها، أي آمنا بالله وما أنزل ونحن له مسلمون، وصبغ الله لنا فهو مصدر نوعي مثل قِعدَة البدوي، فهي خير من صبغتكم التي تصبغون بها أولادكم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحسن، فالصبغة التي صبغناها لا أحسن منها، ذكر الشرفي في (المصابيح) أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يُسَمّونه المَعمُودِيّة، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد بولده ذلك قالوا: الآن صار نصرانيّاً حقاً، انتهى المراد.

فصبغة المسلم قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ..﴾ إلى ﴿..وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فإذا قالها صار مسلماً حقاً وهذه مشاكلة، كقول حاتم لما نحر نحيرة من الإبل: هكذا فَزْدِيْ أَنهْ، وذلك أنهم كانوا يفصدون عرقاً من الناقة أو الجمل ويجعلون الدم في إناء ثم يأكلونه، فأراد حاتم أنه ينحرها بدلاً من الفصد.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ لا لغيره، لأنا عباد الله وحده لا شريك له فينا، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، ولا نعبد عيسى ولا عزيراً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ إذ أسلمنا له وعبدناه وحده ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فنحن وأنتم مجمعون على أن عبادته حق، وأنه المالك لنا ولكم، فكيف نجعل له شريكاً بعد علمنا بهذا.

﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ فلستم مسئولين عن أعمالنا، ولا نحن مسئولين عن أعمالكم، فلأي سبب تجادلوننا في أعمالنا؟! ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أنفسَنا وعبادتَنا ولا شك في استحقاقه الإخلاص؛ لأنه ربنا وحده لا شريك له، فلماذا تحاجوننا في ديننا، فلا باعث للجدال إلاَّ الحسد.

كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

---

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ ﴿أَمْ﴾ أي بل ﴿تَقُولُونَ﴾ وهذا انتقال من الرد عليهم في المحاجة إلى الرد عليهم في الزور والبهتان الذي يقولونه، فبعد أن حكى قولهم، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فقد بين سبحانه أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وهو علام الغيوب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في التوراة أو غيرها مما أنزل، وهي تبيّن الحق في هذا الشأن وتوضح أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وتشهد لنا أنهم كانوا مسلمين، فكيف كتمتم شهادة الله التي عندكم لنا وافتريتم خلافها، كأنكم تدّعون أنكم أعلم من الله، وكيف لم تخافوا الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم جزاءً موفوراً.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط ﴿أُمَّةٌ﴾ أهل دين واحد قد مضوا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فليس لكم من دينهم شيء ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فلا تحتاجون لمعرفة ما كانوا يعملون؛ لأنكم لا تسألون عنه، ولذلك فلا حاجة للجدال فيما كانوا عليه.

(١٤٢) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الذين عقولهم خفيفة، وهم: أناس من أهل الكتاب كفروا بالله ورسوله

انقياداً للحسد بعد ما تبين لهم الحق، وضر ذلك عليهم لأنهم تعرضوا لغضب الله وصاروا من أهل النار، فأي سفاهة فيمن ينقاد للحسد حتى يصير من أهل النار لا يتدبر عاقبة ولا يبالي بضر نفسه.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يشير إلى أن القائلين ليسوا من أهل الكتاب وحدهم؛ لأن السياق قبل هذه الآية كان فيهم ولم يقل: سيقولون، ونسب القائلين إلى الناس جملة، فلا بد أن غير أهل الكتاب شاركوهم ولعلهم منافقون تلقنوا ذلك من أهل الكتاب.

وقولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾ ما حولهم عن القبلة الأولى ووجههم إلى الكعبة تجاهل بالحق الذي هو أمر الله، وإيهام أن ذلك لغرض نفسي كالتعصب للكعبة، ولو كان ذلك كذلك لكان مخالفة لحكم الله وجهالة وسفاهة حاشا رسول الله ص ومن معه، ولكنهم تبعوا أمر الله:

أولاً: في استقبالهم القبلة التي كانوا عليها.

وثانياً: في استقبالهم شطر المسجد الحرام، والسفهاء، هم: المتّهمون لهم بما هو سفاهة.

وقولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ تشنيع لعدولهم إلى الكعبة؛ فلم يقولوا: ما عدل بهم إلى الكعبة؛ لأن غرضهم أن يجعلوهم متولين عن القبلة ﴿ٱلَّتِي﴾ قد آمنوا بها سابقاً و ﴿كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ فعابوا عليهم تركها بعد إقرارهم بها غير ملتفتين إلى أنهم عدلوا إلى الكعبة البيت الحرام.

﴿قُل﴾ يا محمد رَدّاً عليهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ فالأمر له في أن يجعل قبلة أي جهة شاء إما على المعنى الذي مرّ ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وإما على معنى: أنه هو الذي جعل مشرق الشمس ومغربها واختار له جهاته من الأرض، فانقادت له الأرض والشمس، فكذلك يختار القبلة فتكون كما اختار؛ لأن بيده ملكوت كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يفيد: أن القبلة الكعبة نستقبلها بهداية الله لنا إليها في ضمن هدايته لنا إلى صراط مستقيم، فكان المهم بيان أن الله هدانا إلى صراط مستقيم، حيث هدانا إلى اتباع ما أوحى إلى رسوله من الهدى، كما أن السفهاء كانت مهمتهم في اعتراضهم على ترك القبلة التي كانوا عليها، هو القدح في الدين.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : السفهاء الذين ذكرهم الله سبحانه، فهم السفهاء في نفوسهم الذين لا عقول لهم ولا تمييز ولا دين، سفهاء الرأي والأحلام من أهل الكتاب وغيرهم، وذلك أن النبي ص كان يصلي إلى بيت المقدس وكان يحب الصلاة إلى قبلة إبراهيم × ، وهو قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فأمر الله ـ عزَّ وجل ـ أن يولي وجهه ومن كان معه من المؤمنين إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم × ، ثم قال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ..﴾ إلى قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾.

فأمره سبحانه أن يقول لهم عندما يكون من كلامهم وجهلهم وطعنهم عليه في تحوله عن القبلة وغيرها من الأديان تعبّدٌ من الله تعبدك وهو يفعل عز وجل ما شاء ويتعبد بما أراد، وما تعبّد به فهو طاعة له، فكان قول النبي ص لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ قطعاً لحججهم [في الأم لحجهم] وفلاً لكلامهم، فلا يجدون معه قالاً ولا قيلاً.

جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ

و﴿اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨] و﴿يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] وقيل: إن النبي ص صلى إلى بيت المقدس سبعة عشر)) انتهى [هكذا بدون تمييز للعدد ولعله سقط من النسخة التي عندي].

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا قبلتكم الكعبة ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً﴾ أهل دين الإسلام لله ﴿وَسَطًا﴾ خياراً ملتزمين بطاعة ربكم ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله على أكمل الوجوه، والخطاب للنبي ص وخاصته الدعاة إلى دينه المجاهدين معه في سبيل الله، فالإعتراض كان موَجَّهاً إليهم؛ لأن الغرض به القدح في دينهم لصرف الناس عنهم، ولذلك قال في الجواب: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذه خاصة بالمتقين لا يدخل فيها المخلطون، وليس المراد بالأمة كل من ينتمي إلى الإسلام، فهو اصطلاح حادث، وإنما المراد به المخاطبون المذكورون، وكذلك ليس منهم المنافقون.

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿لِّتَكُونُواْ﴾ بسبب كونكم خياراً ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فالشهيد على الأمة لا يكون إلاَّ أوسطهم، وذلك الرسول ص؛ لأنه في عهده شهيد على الموجودين الذين هو بينهم مطلع على إسلامهم أو كفرهم كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل:٨٩] فقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى الموجودين، يؤكد هذا ما حكاه الله تعالى عن عيسى × : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] ودل ذلك كله أن شهداء الله هم خيار الأمم، وأن من كل أمة شهيداً هو خيرهم يشهد عليهم يوم القيامة بما شاهد من قومه، وأن الرسول ص شهيد على من كان في عصره الذين عرفهم بإيمان أو كفر.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي من يتبع الرسول فيتحول معه إلى قبلته الأخيرة وينفصل ويظهر ويمتاز عمن ينقلب على عقبيه، وهو الذي يعبد الله على حرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج:١١].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ليس معناه: أنه لا يعلم ما سيكون، فهو علام الغيوب، وإنما المراد: أن هذا التكليف يشبه الإختبار من حيث أنه سبب لظهور المؤمن الثابت على دينه بوقوع ذلك منه عند هذا التكليف بخلاف من لم يكن ثابتاً في دينه كما علم الله ذلك من قبل بوقوع الانقلاب منه عند هذا التكليف، والسياق يفيد: أن المقصود في هذه الحالة امتياز المؤمن الصادق في إيمانه امتيازه من غيره، فأما انكشاف من لم يكن كذلك فهو واقع تبعاً للمقصود.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ شاقة ثقيلة على النفوس، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] فهو في التعبير عن ثقلها أشد مما لو قيل ثقيلة؛ لأن كبيرة عليهم يدل على ثقل زائد يصعب احتماله جداً.

ولا إشكال أن المراد بهذا: هو تحويل القبلة، وعلى هذا: فالضمير راجع إلى المفهوم من السياق المؤنث، إما الكعبة أي التحويل إليها، وإما الفتنة بهذا التكليف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ المراد به: الخاشعون لله الذين يريدون ما يرضي الله ولا يبالون بما خالفه؛ لأن رغبتهم في طاعة الله غالبة على كل رغبة نفسية، بل ربما غلبت حتى لا يبقى رغبة تخالفها، ولذلك لا يثقل عليهم شيء من طاعة الله، وذلك؛ لأن الله هداهم هدى زائداً على الهدى العام للمكلفين، وهو تنوير قلوبهم بحيث يحبون طاعة الله ويكرهون معصيته، ولا يبقى لهم هوى يعارض ذلك؛ لأن هواهم الطبيعي يضعف عن المعارَضة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بل لا بد أن يثيبكم عليه ثواباً عظيماً، والخطاب للثابتين المتبعين للرسول ص وهم المؤمنون الخلص، ويؤخذ منه أنه لا يضيع صلاتهم إلى بيت المقدس؛ لأنهم صلوها إيماناً بالله ورسوله ويخرج من ذلك من صلى من المنافقين لموافقة اليهود لا إيماناً بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لعله على معنى التوزيع، فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ورأفته لمن شاء على الحكمة أو تعم الناس لكن من كفر وتمرد تكون الرأفة به في صغره مثلاً، وهذا لأن الرأفة أبلغ من الرحمة بدليل العطف في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] والعطف دليل التغاير، ويكون المعنى رحمة في بعض الأحوال، ورأفة في بعض آخر.

وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ

وفي (لسان العرب) ما لفظه: ((ومن صفات الله ـ عزَّ وجل ـ الرؤوف، وهو الرحيم لعباده العطوف عليهم بألطافه، والرأفة أخص من الرحمة وأرق)) انتهى .

قلت: ولعل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢] أتى بذكر الرأفة لكونها مظنة أن تغلب صاحبها فيقصّر فيما أمر الله به من الحد بسبب شدة الرحمة له، فيناسب هذا كون الرأفة أخص وأرقّ ـ والله أعلم، والله سبحانه منزّه عن الرقة، والمراد: أنه يعامل معاملة الرءوف، وكذلك الرحيم.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تقلب الوجه في السماء نَظَره إلى جهة فوق، وهذا شأن من ينتظر آتياً يأتي من جهة أن ينظر إلى تلك الجهة، فرسول الله ص عمل على دفع الطبيعة البشرية في انتظاره نزول الوحي في شأن القبلة، ولعل سبب ذلك وعد من الله سابق أنه سيجعل قبلته الكعبة أو دعاء يتوقع إجابته أو نحو ذلك، و﴿قَدْ﴾ للتقليل، وذلك لقلة الفعل أو للتحقيق، ولا موجب لحمله على التكثير لإمكان أن تقلب وجهه في السماء قليل.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ هو ص يرضاها؛ لحكم الله بتوليتها، وبالطبع لكونها قبلة أبيه إبراهيم ـ صلى الله عليه ـ وليس المعنى: أنه لم يكن يرضى القبلة بيت المقدس؛ لأنه ص يرضى ما رضي الله له.

﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ اجعل ﴿وَجۡهَكَ﴾ واليـاً ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ أي موجهاً إليه، وقوله تعالى: ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ أي بعضه؛ لأنه يكفي استقبال بعضه، ولذلك صحت الصلاة جوف الكعبة، والمسجد الحرام الكعبة وتحريمها؛ لأن من دخلها كان آمناً، وهي مسجدٌ بني للصلاة فيه والطواف حوله وغير ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وظاهر طهارته للركع السجود طهارته للمصلين فيه لا للمصلين خارجه.

﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ والمراد مع التمكن من ذلك، فيصلي إلى الكعبة من أمكنه التوجه إليها، ولو كانت فوقه أو تحته، أما من تعذر عليه ذلك لمرض أو التباس أو غير ذلك، فهو يكفيه الاستقبال حيث أمكن، بدليل الآية السابقة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ أي استقبال شطر المسجد الحرام لعلمهم أن الحكم لله وأن هذا حكمه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء والضمير لأهل الكتاب من آمن منهم ومن كفر، والمراد أنه سبحانه سيجازي كلاً بعمله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل الآيات على أن القبلة كانت إلى غير الكعبة، وهو بيت المقدس بالإجماع المعلوم، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وعلى نسخ استقبال بيت المقدس وتحويله إلى الكعبة المشرّفة، وعلى ان امتحان العباد بالنسخ حسن، وأن فيه حكمةً، وكذلك سائر الإمتحانات كما يأتي في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ..﴾ الآية [الحج:١١].

وكابتلاء (أصحاب السبت) بحشر الحيتان إليهم يوم سبتهم، فكانت تأتيهم شرّعاً وعلى أن طائفة من الأمة جعلهم الله شهداء على الناس؛ لأن الآية لفظها عام، ومعناها خاص؛ لأنه لو كان المراد بها جميع الأمة لكان المعنى: وجعلنا جميع الأمة شهداء على جميع الأمة، وذلك فاسد، فما بقي إلاَّ أن يكون المعنى خاصّاً بطائفة من الأمة)) انتهى المراد نقله هنا.

وأقول: قد بينت فيما مضى أنه ليس عاماً للأمة، وليس هناك صيغة عموم، وإنما هو ضمير غيبه،في قوله حاكياً: ﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾ يحتمل الاختصاص بقادة الإسلام، وحيث أن المقصود به القدح في الإسلام، فالمقصود به أصالة هو رسول الله ص، وإنما ضَمّوا إليه خاصته كُفْراً به وتسوية بينه وبينهم.

أما الأتباع الذين ليسوا قادة في الدين فليس السؤال موجهاً إليهم؛ لأنهم أتباعٌ معلومٌ جوابُهم لو سُئلوا: أنه الإتِّباع لرسول الله ص ((كم)) ضمير خطاب لرسول الله ص وأناس معه غير معينين؛ لا بعموم في الضمير ولا خصوص في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ مع أن قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قد دل من حيث هو جواب السؤال على أن المراد في الجواب رسول الله ص وخاصته الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم، الهدى المطلوب في قولهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهدى المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] وهذا لا يدخل فيه المخلطون، فأكد ذلك أن الكلام في رسول الله ص وخاصته قادة الإسلام المطهرين، فقوله تعالى ـ عطفاً على ذلك ـ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خاص بهم؛ لأن السياق واحد، يؤكد ذلك أن الوسط هم الخيار، وقد مر هذا وأعدته لزيادة بعض الكلام.

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ

فظهر: أن قول الإمام ((لفظها عام)) سهو، وأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ خاص برسول الله ص وأناس معه غير معروفين في الخطاب لا بعموم ولا خصوص، فهو مجمل بينته القرائن المذكورة، فأما لفظ ﴿أُمَّةً﴾ فلا يدل على العموم؛ لأن استعماله في أمة الإسلام كلهم عرف خاص طارئ ليس في القرآن، وفي القرآن: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٥٩] فثبت أنه يستعمل في بعض المنتمين إلى الملة لسبب خاص يجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لا يدل على أن المخاطبين هم كافة أهل الملة؛ لأنه ص شهيد على الخاصة والعامة الموجودين في عصره الذين علم إيمانهم أو كفرهم، فخطاب الخاصة بأنه شهيد عليهم لا مانع منه.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ لأنهم متعصبون لقبلتهم قد كفروا بالحق بعد الآيات البينات فخذلوا، فلا يفيدهم زيادة الآيات، ولو جاءتهم كل آية، فلا يتبعون ﴿قِبۡلَتَكَ﴾ التي هي الكعبة.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ لأن الله قد هداك للحق ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧] ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ﴾ لتعصب كل ملة لقبلتهم وكون القائد لكل منهم إلى دينه هو الهوى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن من الحيف والجور أن يعدل العبد عن أمر مالكه المنعم عليه إلى أهواء أعداء ربه.

كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ

﴿١٤٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الذين علمهم الكتاب، فهم يقرؤونه ويفهمون معانيه ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون ما جاءك من العلم، أي يعلمون أنه من الله ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ معرفة تامة ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي من هؤلاء الذين يعرفونه ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فيعلمون الحق ويعلمون إثم الكتمان، فيعلمون أن ذلك الكتمان قبيح، ومع ذلك يكتمون؛ جرأة على الله وانقياداً للحسد والكبر والهوى.

﴿١٤٧﴾ ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأن ما أمر به حق، وما شرعه الحق فالحق منه؛ لأن التشريع منه، له الحكم وله الملك، ومن ذلك جعل الكعبة قبلة فهو حق من الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكّين؛ لأن الله يحكم لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته، ولا يشرك في حكمه أحداً، فما شرعه فهو الحق وما بعد الحق إلاَّ الضلال، فلا مجال للمرية.

﴿١٤٨﴾ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ منك ومنهم ومن كل فريق منهم ﴿وِجۡهَةٌ﴾ قبلة يوليها وجهه ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي الله سبحانه هو الذي شرع تلك الوجهة وجعلهم بحكمه يولونها وجوههم؛ لأنه المشرّع، فهم كلهم في الأصل تبعوا تشريعه لعلمهم أنه الحق وإنما يتعصبون لوجهتهم من بعد ما ولاهم الله إياها، واتبعوا تشريعه، فكان عليهم أن يتبعوا تشريعه إذا نسخها كما اتبعوا تشريعه حين شرعها، وهذا يمكن أنه عبارة عن القبلة فقط،، ويمكن أنه كناية عن الشرعة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي الخيِّرات بالتشديد وهو يصلح للأعمال الصالحات وللدرجات التي تنال بالأعمال الصالحات، فإن كان المراد بها الأعمال فالمراد أمر الفرق المختلفة أن تستبق الحق الذي يقبله الله وهو خير الطرق وأفضلها، وأعماله هي الخيرات أي الفاضلات، وإن كان المراد به الدرجات، فهو كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] والاستباق إليها: أن يعمل كل ليسبقها، وذلك بأن يعمل العمل الموصل إليها وهو الدين الحق الذي يتقبله الله ويثيب عليه.

فالحاصل: أمر الفرق أن تستبق وتطلب السبق باتباع الحق الذي يؤدي إلى السعادة، فهو الذي ينبغي التنافس فيه لا الطرائق التي لا يقبلها الله، فلا تؤدي إلى الدرجات العلى، وليس لها من صفة الخير والفضل شيء؛ لأنها صارت بالنسخ غير مرضية، وهذه الآية مثل آية المائدة، وحاصل ذلك أمر أهل الملل أن يكونوا على الحق.

ومعنى ذلك: أن يصيروا ملة واحدة هي الحق، وهو دين الله الذي شرعه في القرآن وفيما أوحى إلى محمد ص.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ﴾ من أقطار الأرض أو غيرها من الأمكنة ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ مجتمعين، وذلك يوم يجمعكم ليوم الجمع، وهذا كقوله تعالى في (سورة المائدة): ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [آية:٤٨] ولعل ذكر الأمكنة ليعم كل من يستقبل قبلة فيتناول من يكون قريباً من قبلة فيختارها ويتعصب لها لقربها فبيّن لهم أن مرجعهم إلى الله في أي مكان كانوا، وعلى هذا فعليهم أن يطيعوه في أي مكان كانوا؛ لأن مكانهم لا ينفعهم أو ينجيهم من الرجوع إلى الله لتجزى كل نفس بما تسعى، ويتناول من يكون بعيداً من الكعبة فيظن أن بُعده عذر له في ترك استقبال الكعبة أو يتهاون بالقبلة لبعدها ـ والله أعلم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو على جمعهم إذا شاء قدير.

وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿١٤٩﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ من أي مكان ﴿خَرَجْتَ﴾ إليه وصرت فيه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ منه ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فالحكم واحد فيمن كان في بلده، ومن كان خارجاً عنها فعليه أن يستقبل الكعبة في صلاته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وتأكيد بخصوص الخارج من بلده الذي تختلف عليه الجهات، وتلتبس عليه القبلة ويحتاج إلى النظر في العلامات أو سؤال أهل البلد المسلمين، فالحكم واحد ولا يسقط إلاَّ عند تعذر معرفة جهة الكعبة بأي وسيلة ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو غير غافل عن المصلي في أي مكان كان.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وليترتب عليه ما يأتي كما ترتب على الأول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ إلى آخر ما قال سبحانه فيهم.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي أمرناكم أن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام لئلا يكون للناس عليكم حجة، لو بقيتم على استقبال بيت المقدس وترك الكعبة، والحجة ما يحاجون به، أي يجادلون، ولو لم يكن دليلاً صحيحاً، فلولا ذلك لكان لهم ما يجادلونكم به فيقول أهل الكتاب: لولا أن

ديننا هو الحق ما كان على قبلتنا، ويقول كفار العرب: لو كان على حق لكان يستقبل الكعبة قبلة إبراهيم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هنا هم المكابرون الذين لا يقبلون حجة، ولا ينصفون في جدال، فهم لا يزالون في حيف وجور، ولا ينفعهم بيان الحق ولا دفع الشبهة، فهم لا يزالون يتمسكون بحجة داحضة ويجادلون بشبهة باطلة، فالاستثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا يحاجونكم بحجة داحضة وهي حجة المكابر التي لا يُبَالَى بها ولا يُشْتَغَل بالجدال فيها، وإنما جداله بالسيف متى لجّ به الخصام إلى السيف، وعند ذلك ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ ولا تحيدوا عن قتالهم خوفاً منهم، ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ لا تخالفوا أمري فيهم بالقتال كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣] وقد أمر سبحانه بقتالهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:٢٩] وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وغير ذلك، وأشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : فالخشية قد تكون من الأذية والكلام والبسط والقتال، فأمر الله أن لا يخشوا الخلق ولا يهابوهم ولا يدارون الظلمة ولا في الله سبحانه يتاقونهم، وأن تكون خشيتهم لله سبحانه وقصدهم إياه والطلب منهم لرضاه)) انتهى.

فالأولى تفسير ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ بالمعنيين ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ جعلت قبلتكم قبلة أبيكم إبراهيم التي ترضونها ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ باتباع أمر الله في القبلة التي صار استقبالها هو الهدى وفي غيرها.